المشرق
بيروت

السنة التاسعة والثلاثون — ت ١ – ك ١ ١٩٦١

المحبة وتأثيرها في الحقوق

خلاصة محاضرة ألقاها بالفرنسية الاستاذ شكري قرداحي الاستاذ في مدرسة الحقوق الفرنسية في بيروت، وفي محفل الحق القانوني في لاهاي، والرئيس الاول لمحكمة التمييز اللبنانية سابقاً. نعرّبنا اهم فصولها، ضنّاً بما حوته من فرائد الفوائد. قال:

اني أسائل النفس هل يحسنُ بي في هذا الوقت أن اتكلّم عن المحبة وألفظ هذه الكلمة الساحرة التي حدّد بها الكتابُ المقدس الخالق عزّ وجلّ بقوله: «ان الله هو المحبة»، في حين أنّ العالم المسيحي يئن ويتألم، والثروة النفيسة التي خصّلتها الأنسانية من ضروب النجاح ومن العلوم والفنون في عدة قرونٍ، تنحدر في طريق الفناء والاضمحلال من جرّاء حربٍ طاحنةٍ لا تخامرها رحمةٌ بل تكاد تكون انتحارا اجتماعياً؟..

لا جَرم أنَّ تلك الفضيلة الجميلة العظيمة ، لم تكن يوماً أجدر بالنظر والبحث منها في هذا الوقت .

ان كلمة المحبة مكتوبة بحروف ذهبية في جميع صفحات الانجيل ، ومشعشعةٌ في جميع الكتب المقدسة ، وبارزةٌ في اقوال الرسل .

فايُّ امرئٍ لا يذكر النشيد الذي عظّم به القديس بولس المحبة ، ذاك النشيد الذي لم ينطق باجمل منه لسان انسان ؟

فلا عجب اذاً في أن نرى ثلاثة من كبار البابوات يستهلّون مهمّتهم البابوية السامية بما تدعو اليه تلك الفضيلة عند ما رأوا عقارب البغضاء تدبُّ في القلوب والحقد يأكل الصدور فأخذوا على انفسهم القيام بالواجب المتعب والشريف معاً ، واجب انقاذ الانسانية من نفسها وتجديدها بروح المحبة . ففي اول تشرين الثاني سنة ١٩١٤ اصدر البابا بندكتوس الخامس عشر منشوراً اظهر فيه اسباب الخطب العظيم الذي نزل بالانسانية في تلك السنة ، يعني حب الذات والجشع ونسيان شريعة الله . ثم عمد البابا بيوس الحادي عشر الى إصدار رسالة في ٢٢ كانون الاول سنة ١٩٢٢ اظهر فيها أن السلم الحقيقي لا يعودُ الى العالم الّا بالعودة الى القيم الروحانية ، وأن عهد الهناء والطمأنينة الذي علّلتنا به تباشيرُ جنيف وأحكمتهُ عهدة بريان - كيلوج لم يكن الّا سراباً خادعاً وبرقاً خلّباً . وبينما كان العالم يهتزّ لقصفات المدافع وضرضا المعارك أصدر البابا بيوس الثاني عشر منشوراً بابوياً في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٩ اوضح فيه القواعد الانسانية التي يقوم عليها العدل والمحبة والتي يجب بناء النظام الجديد عليها لان تلك القواعد هي وحدها تصلح لأن تكون اساساً للمستقبل .

اما انا فقد جعلت مهمّتي اكثر اتضاعاً واقرب الى نوع العمل الذي اقوم به ، وهي استقصاء فكرة المحبة في الحقوق الحديثة . ولقد كنت أودُّ ان اتتبع سير تلك الفكرة في جميع انظمة الحق العام والحق الخاص ، ولكن ضيق الوقت يضطرني الى الاكتفاء بنظرة اجمالية الى القوانين والاحكام الاجتهادية التي اوحت بها المحبة ، وبالاشارة الى خصائص مفعولها في تهدئة النفوس والسلام الاجتماعي ضمن نطاق الحق الخاص لأن البحث من هذا الوجه في الحق العام يتطلب

شرحاً ضافياً تضيق عنهُ محاضرةٌ بسيطة ·

وسأبحث اولاً في الحق الجزائي واصول المحاكمات وطرُق التنفيذ مقتصراً على لمحةٍ وجيزة. ثم افيض في الكلام على فتوحات المحبة في دائرة الحق المدني والحق البحري في هذا الزمن ·

ويجدر بنا في صدر هذا البيان أن نحيي أولاً الاصلاح الخطير الذي يعدُّ في طليعة الاصلاحات التي يدونها تاريخ المدنية ، اعني به الغاء الرقيق الذي دفعت اليه المحبة وسجلتهُ في مقدمة كتابها الذهبي وكان مستهل حركةٍ مباركةٍ لتوجيه الحق في سبيل الانسانية · وما زالت تلك الحركة تشتدُّ وتمتدّ يوماً فيوماً ·

ولا مشاحة في ان المحبة اكتسبت مجداً كبيراً لانها رفعت شأن الكرامة الانسانية بالقضاء على نظام الرقيق العريق في القدم · ذاك النظام الذي فات كبار المفكرين القدماء ما يتضمنه من ظلمٍ يحطّ من قدر الانسان وينزله الى مستوى الحيوان بل يحوّله الى شيء بسيط ليس له شأن ·

وها إني على نور ذلك الحادث الخطير الذي يتلالأ كمصباح نيّر على الصرح القانوني ابدأ البحث والاستقصاء في خلال القوانين المختلفة مبتدئاً بالحق الجزائي وهو أقدم الحقوق ·

III

ايها السادة ، ان تأثير المحبة كان فعّالاً في الحق الجزائي من حيث تلطيف العقوبة واختصاصها (indivi dualisation) ولقد ظهر هذا التأثير ايضاً في تقدم التدابير المختصة بالدفاع عن المجتمع (mesures de sûreté) · فان هذه التدابير التي تعدُّ تكملة للعقوبة تُتخذ من كل جهة في الحق الجزائي لتمكينه من القيام بمهمته الحقيقية التي لا تقتصر على معاقبة المجرم بل تشمل تلافي الاجرام بالتدابير المناسبة ، وخصوصاً مساعدة المجرم على اصلاح نفسه واسترداد منزلته ·

ولا يذهب عنكم ان مدارس الحقوق تعلم عادةً طلّابها أن العقوبة يجب أن تكون قانونية وشخصية ومُصلِحة ومُكفِّرة وأن تكون، الى حدٍّ ما ، عبرةً للناس ·

على ان تقديم العبرة الممزوجة بفكرة الانتقام ، والموضوعة اليوم في المرتبة

الاخيرة من العقوبات ، بقيت ردحاً طويلاً من الزمن غايةَ الشارع الوحيدة فكان يذهبُ الى أن إحداث الرعب والهلع يصرف الناس عن ارتكاب الجرائم .

وعن هذا المذهب نشأت ضروبُ التعذيب والتفظيع في العقوبات كعذاب نزع الارجل والايدي ، وعذاب الخازوق ووضع السلاسل الحديدية في الاعناق لربطها بالاعمدة . وكان القضاة يحكمون بالاعدام في اغلب الاحيان على من يرتكب جرماً بسيطاً أو يعودُ الى ارتكاب سرقة ، مما تعاقب عليه محاكمنا اليوم بالحبس بضعة اشهر او بضعة أيام فقط .

وكانت الاحوال التي تستوجب الاعدام في سالف الزمان ١١٥ ثم أنزل هذا العدد الى ٣٦ بمقتضى القانون الجزائي الصادر في سنة ١٨١٠ . اما اليوم فلا يتجاوز عددها اثنتي عشرة حالة .

ويروى ان القاضي كرزاك عندما آذنت شمس حياته بالغروب كان يقول مفتخراً بوجه باش وضمير مستريح « ان الذين حكمت باعدامهم يتجاوزون عشرة آلاف » .

ومما يدلّ على شدة العقوبات في سالف الزمان ، وعلى الرغبة في ايقاع الرعب والهلع في النفوس ما رواهُ المستشار دانغيـو الذي كان يعدّ من صفوة القضاة في العهد القديم وهو : ان اعضاء المحكمة الجزائية في برلمان نورمانديا اعربوا له عن رغبتهم في معاقبة من يقطع شجرة سنديان كما يعاقب من يقتل الانسان ، على ان هذا المستشار كان اسمى شعوراً منهم ورأى ان عقوبة الاشغال الشاقة (الكورك) هي اكثر مناسبةً لمبلغ الجرم ولمصلحة المجتمع . اما في ايامنا فلا يستهدف من يقطع شجرة الا لجزاء نقدي . ولا غروَ فـان المرء مهما يكن حبّه للشجرة فلا يستطيع أن يفسر او يستحسن مثل تلك القسوة الفظيعة .

ولقد بلغت فكرة الانتقام في بعض الأحيان الى حدّ الغلوّ في السخط والهيجان حتى انهم كانوا يحاكمون الحيوانات ويمثلون بالجثث والاشياء الجامدة . ألم نقرأ في الروايات القديمة ان محكمة بوثيه حكمت على ثور بالصلب لانه فتك بشاب في آبان هياجه ، وأن خنزيرةً حكم عليها بالموت ضرباً لانها قضمت ذقن ولد في قرية شارون . ألم نقرأ ان الجرس الذي قرع عند الهجوم على دير القديس

سان مارك لانتراع جيروم سافونارول، شُهِّرَ على ظهر حمار تنفيذاً لحكم قضائي؟ لا جَرم ان المرء يظن نفسهُ في حلم من الاحلام عندما يقرأ امثال تلك الروايات وهي مع ذلك صحيحة .

على ان مفعول المحبة ، وإن يكن بطيئاً ، لم يبدُ في هذا النطاق اقل تأثيراً منه في الشؤون الاخرى . ولا عجب في ذلك الابطاء. لان إزالة العادات العريقة في القدم ، والتقاليد المحترمة لا تتم بلا عقبات .

اما حركة انهاض المجرم ، فقد اخذت تظهر منذ مدة غير قصيرة . ويحاول ولاة الامور في هـذا الوقت أن يقيلوه من كبوته ويصلحوا نفسه واخلاقه وينظِّموا له في مدة سجنه عملًا يكسبه رأس مال صغير يستفيد منه بعد إطلاق سراحه . ولا يفوتهم في الوقت نفسه ما يجب ان يناله من عقاب وألم تكفيراً عن ذنبه. وعلى هذا النحو يساعدونه بعد إطلاق سراحه ، على النهوض. ويرجع الفضل في هذا الانقلاب السعيد الى الفكرة الدينية . ويقول القانوني الكبير « غارصون » ان الفضل فيه يعود الى عقيدة الخلاص المسيحي التي وعدت بغفران الخطيئة حتى في حالة النَدامة غير الكاملة .

ويرجع الى المصدر نفسه مبدأ تخصيص العقوبة الذي حققته المحاكم الكنائسية القديمة قبل انتشاره في المحاكم الحديثة كما يقول الباحثون ، والذي بعد النابة الاخيرة عند علماء القانون الجزائي في هذا الوقت. وهذا الميل الى التخصيص يظهر اليوم في الحقوق العائدة الى الحكومة والادارة فيما يتعلق بمدة العقوبة . فايُّ داع يستوجب إطالة الحبس اذا اتضح أن المحكوم عليه قضى حق المجتمع وأصلح نفسهُ ؟ أليس من دواعي الانسانية ان يُعفى عنهُ ؟ لذلك جُعِل حق اصدار العفو امتيازاً لرئيس الدولة كما أُعطيت الادارة حق الافراج عنه بشرط ان لا يعود الى ارتكاب الجرم ، فيرجع اذ ذاك الى سجنه وتُشدَّد عقوبتهُ .

ولا يخلق بنا ان نغفل الكلام هنا عن تدابير الدفاع عن المجتمع التي كانت مغفلة منذ قرن ثم اصبحت في هذا الوقت قاعدة لكل اشتراع وبلغت من الشأن الى حدّ ان مشروع قانون الجزاء الايطالي ،الذي وضع سنة ١٩٢٠ أحلها محل العقوبة .

واني اقتصرُ هنا على تعداد بعض تلك التدابير التي يُقصد بمعظمها إنهاض المجرم و إصلاحه ، فهي تعد تدابير حماية واسعاف كتربية الاحداث المجرمين ومعالجة المصابين باختلال عقلي كالمجانين واشباه المجانين والسكيرين والمدمنين بالعقاقير الخ .

ولا يسعنا ايضاً أن نغفل ذاك القانون الذي يجيز إيقاف التنفيذ في من يرتكب اول جرم وتمكينه من صون شرفه واجتناب الاختلاط المفسد بالسجناء ، على شرط أن يثبت بعد السقطة الاولى انه ينهج سواء السبيل . كما يجمل بنا ان نشيرَ الى التدابير المختصة باعادة شرف المحكوم عليه بعد اختباره في مهلة معينة لاصلاحه .

افلا ترون ايها السادة ان كلَّ هـذا الاصلاح الاجتماعي الذي تتبعناه في مراحله المختلفة والذي تمَّ تحت ستار « حب القريب » وضمنَ نطاق كان التطرف في الارهاب والغلوّ في الانتقام سائدين فيه ــ الا ترون انه اصلاح جميلٌ مثمر ?

وإذا انتقلنا الى أصول المحاكمات وطُرُق التنفيذ رأينا ان شعاع المحبـة لم يكن فيها اقلّ فائدةً ونفعاً ، وان يكن اقلّ ظهورًا . فقد كانت تلك الأصول في الزمن الاول تُؤيد ابلغ تأييد حق الدائن على المدين حتى انها اجازت في البدء قتله عند الامتناع عن الايفاء ثم اجازت بيعه في السوق . على ان دافع المحبة خففَ من تلك الشدة وجعلها اقرب الى الانسانية فاصبح شخص المدين في هذا الوقت لا يضام من أجل دينه ولم يبقَ هذا الدين لاصقاً بعظامه كما كانوا يقولون بل اصبحت ثروته وحدها ضامنةً لدينه ، او بالاحرى جزءٌ فقط من ثروتـه لان عاطفة الشفقة حملت الشارع على جعل فراش المدين وملابسه وملابس عيلته مع مقدار من الدقيق والمواد الغذائية الكافية لمدة شهر ، بأمن من كل حجز ، بل ذهب في سبيل الرحمة الى ابعد من هذا المدى فمنع حجز الكتب المتعلقة بمهنة المدين ، وهو امرٌ ذو شأن في نظر أهل العلم والثقافة .

ولا غروَ فانَّ الدائن المتحجر القلب المجرَّد من الشفقة لا يجوز له ان يصل الى اقصى حد من حقه ، والرحمة تأبى عليه ان يطرد عيلةً بعنف وشدة من مسقط

رأسها حيث اجتمعت مواضيع حبها مع تذكاراتها الحلوة والمحترمة ، ولاسيما ان انتزاع صغار الملاك من منازلهم يهدد بالخلاء الجهات الزراعية من سكانها ويقذف بهم الى المدن فيزداد فيها عدد العاطلين عن العمل . وإنّ الخطر من هذا الوجه لعظيم في ذاته فكيف اذا مدّ القضاء يده لاخراج صغار الملّاك من بيوتهم في القرى والدساكر :

وليس هناك شك في أن جاذب المدن الكبرى الخلّاب منذ استوت الآلة على عرشها تغلّب على نفس الفلاح وعلى كل الفضائل المجسّمة فيه بل على سحر البراري الخضراء ايضاً ، ورأينا أن تلك الطمأنينة القروية والسعادة الهادئة والبهجة الصافية ، التي تكافئ بها الارض الكريمة اولئك المتضمين الذين يخدمونها — الارض التي ودّ ڤرجيل لو استطاع ان يبدل بها مجده وعبقريته — لم تستطع كلها ان تثبت اقدام القرويين في اراضي اجدادهم لان سراب النجاح الخداع الذي يؤدي في الغالب الى البؤس والاضطراب هو لسوء الطالع قويّ المفعول بليغ التأثير في انفسهم .

أو ليس من واجب الشارع في مثل تلك الاحوال ان يضمن ملك العيلة للمدين السيئ الطالع فيصون له هذا الملك الذي يعدّ جزءاً من نفسه فيراعي في اشتراعه الدواعي الانسانية والاعتبارات الاقتصادية ، ويحول دون سلخ ذاك المسكين عن الارض التي كانت مسقطاً لرأسه ؟ لا مشاحة في ان هذا التدبير ينطبق على المصلحة العامة الكبرى للمجتمع ومن جملته نفس الدائن .

فلا عجب اذاً في أن نرى ذاك القانون الاميركي الأصل القاضي بصون ملك العيلة ، مرعياً في العالمين القديم والجديد ، وهو يسمى فيما وراء الاطلانتيك « Homestead » وفي القطر المصري « بقطعة الفدادين الخمسة » ، ولا يسمح على الاطلاق بحجز ذاك الملك أو مسه

ومما يجدر بنا ذكره في عرض هذا الكلام ان دواعي الشفقة حملت الشارع على ابقاء جزء من اجرة العامل وراتب الموظف وأجر المستخدم بأمن من كل تعقب قضائي اذ لا يجوز أن يتحوّل التشديد في العدل الى ضرب من الظلم .

ننتقل الآن الى درس تأثير المحبة — وهي موضوعنا الاساسي — في الحق المدني الجديد :

على انهُ يحلو بنا في مستهلّ هذا البحث ان نوضح نطاق تأثير المحبة وان نميّز بينها وبين فضيلة العدل التي تمدّ اختاً لها :

لقد اجمع الباحثون بوجه عام ، على أن هاتين الفضيلتين ، مع وجود بعض الفوارق بينهما ، لا تتعارضان بل تُتمّم احداهما الاخرى . الا أن الواجبات التي تفرضانها ليست من نوع واحد . فالعدل يقضي بان يجتنب الناس كلّ ما يضر ابناء جنسهم وبأن يؤدوا لكل انسان حقه ، فكلّ مخالفة لهذا الواجب تخول المضرور حقّ المداعاة بشرط ان يكون الواجب معيناً . أمّا المحبة فتوجب على الناس أن يمدوا يد الاسعاف للمتألمين وأن يتعاونوا على وجهٍ عام . بيد أن وجوه الاسعاف أو التعاون كثيرة متعددة . فايّ اسعاف يجب على كل واحد أن يقوم به ، ولمن يكون هذا الاسعاف ؟

ان الغموض تامّ من هذا الوجه . فلذلك يصعب على الناس ان يتصوّروا ان أحد واجبات المحبة يمكن أن يكون له حقّ يقابله وأنه ينفذ قضائياً .

تلك هي الوجهة النظرية ، على أن العدل والمحبة يجب أن لا يكونا متعارضين بمعنى أنّ كلّ واحدة من هاتين الفضيلتين تعتبر منافيةً مبدئياً للاخرى . فان بعض واجبات المحبة يمكنهُ ، في غالب الاحيان ، ان يتحول الى واجب عدل حينما يكون هذا الواجب معيناً على اثر بعض الظروف ، وحينئذٍ يصبح قابلاً للمداعاة ، لان الموضوع والمدين بالحق يكونان اذ ذاك معروفين .

وسترون ان المحبة قدّمت معونة قوية في دائرة العدل واحدثت فيه نشاطاً ونموّاً ، فهو يعدُّ من بعض الوجوه من منتجات المحبة لانها هي التي أدخلت في الاشتراع كثيراً من الحقوق لم تكن تنطبق على العقلية القديمة . وهي التي خفّفت شدة كثير من القوانين الحديثة . ولقد تعددت التدابير من هذا القبيل حتى قال أحدُ المؤلفين : « اني لا اعجب من ان ارى يوماً المشترعين يؤكدون ان العدل ليس الا « اسماً » أعطي لموجبات المحبة ، التي رأوا من المفيد ان يحولوها الى قواعد حقوقية واجبة المراعاة . » وقال جيليه بهذا المعنى وبصيغة

أقوى : « ان العدل اليوم هو المحبة بالامس ، والمحبة اليوم هي العدل غداً . »

فالاعتبارات المتقدمة تبيّن لنا المنهج الذي يجدر بنا اتباعهُ . وسنبحث اولاً في ما يعود مباشرةً الى المحبة ، اي واجب الاسعاف ، ثم نتطرق الى الموجبات المختلفة الناشئة بطريقةٍ غير مباشرة عن تلك الفضيلة .

واجب الاسعاف

اننا لا نرى اثراً على الاطلاق في القوانين القديمة لواجب الاسعاف الذي قضت به المحبة ثم تحوّل الى موجب عدلي متحتم التنفيذ .

اما اليوم فقد أخذ نطاق فعله يزداد اتساعاً ، ونصّ عليه الحق البحري والحق المدني . فمن ذلك التعويض الذي تقدمهُ الدولة عند وقوع اضرار الحرب ، والاسعاف العائلي وتقديم الغذاء . واسعاف صاحب المهنة عند وقوع حوادث العمل ، والاسعاف المختصّ بشمول الخطر كالاسعاف البحري ، ثم واجب التعاون الذي يقضي في بعض البلدان بمعاقبة من يظهر مجرّد امتناع عن الاسعاف .

ا – الاسعاف الذي تقدمهُ الدولة

ان قانون ١٧ نيسان سنة ١٩٢٩ يقدم لنا مثلاً من قوانين التعويض التي لم تستمدّ شيئاً من فكرة المسؤولية . وان كثيرين من رجال القانون يرون أن التعويض الذي يُعطى في مثل تلك الحال ليس الّا تطبيقاً منطقياً لفكرة التضامن والتعاون . فالضرر الذي ينشأ عن الحرب هو ضرر اجتماعي يجب توزيعه على جميع اعضاء المجتمع ولا سبيل الى هذا التوزيع الا بتحميل الدولة اعباءه

ب – الاسعاف العائلي

ان واجب هذا الاسعاف موجودٌ بين بعض ذوي القربى والمصاهرة . والقانون يعين الدائنين والمدينين بهذا الواجب كما يوضح في الوقت نفسه الموضوع أي الموجب الغذائي . وهو متحتم الاداء من الوجه الادبي الى حدّ ان واجب الغذاء شمل الاولاد غير الشرعيين وان لم يكنْ هناك نصٌ قانوني يقضي به . على ان التيار لم يقف عند هذا الحد بل تعدّاهُ الى جزء من الاشتراع محكم الاقفال منذ مدة طويلة ومصوغ في صيغة نهائية ، اعني نظام الاحوال الشخصية الاسلامي ،

فرأينا ان بعض المحاكم المصرية قضت باسعاف القربى غير الشرعية مع ان الشريعة لا تقضي به .

ج – الاسعاف المختص بالمهنة

ان القوانين المختصة بحوادث العمل يمكن تصويبها بالحجة نفسها . وهي قائمة على فكرة خطر المهنة . ولا غرو فان المهنة تجمع في مصلحة واحدة بين رب العمل والعمال . فاذا وقع حادث وجب التعويض على رب العمل لا لانه مسؤول بل لانه ملزم شرعاً باسعاف العامل على الرغم من جميع النظريات القانونية الأخرى ، وهو ملزمٌ على الاقل بان يسعف العامل عند ارتكاب خطإ لم يكن في الوسع اجتنابه .

د – الاسعاف البحري

ان فكرة الاسعاف تتجلى هنا بكل ما فيها من جمال . ومما يخلق بالذكر في هذا الباب أن البابا بيوس الخامس قضى في دستوره الشهير (*Cum nobis*) منذ سنة ١٥٦٦ ، بان جميع صيادي السمك والبحارة يجب عليهم أن يساعدوا السفن المستهدفة للخطر .

ثم جاءت القوانين الفرنسوية فأيدت هذا الواجب الذي تدفع اليه المحبة عند حدوث تصادم بين سفينتين فأوجبت على كل سفينة مصادمة أن تتذرع بجميع الوسائل المستطاعة لانقاذ السفينة الاخرى وما اكتفت بهذا كله بل أوجبت ايضاً، في غير حالة التصادم، ما اوجبه اتفاق بروكسل سنة ١٩١٠ وهو ان كل قبطان ملزمٌ بأن يمدّ يد الاسعاف لكل شخص وان يكن عدوا اذا كان مهدداً بخطر الهلاك في البحر ، طبقاً لوصية القائل الكريم : احبوا أعداءكم .

ثم تجلّى الاخلاص في اسمى مجاليه في هذا الموجب ، اذ فرض على كل قبطان ان لا ينقذ نفسه قبل ان يضمن سلامة جميع البحارة والركاب الذين فوّض اليه امر المحافظة عليهم .

افلا ترون ان هذا الموجب هو قضاء على الأنانية ودعوة الى انكار النفس ؟

ولقد تشددوا الى حدّ ان الضرورة اصبحت لا تعتبر سبباً مبرراً ، ورأوا ان القبطان يلزمه أن يكون امام الخطر قدوةً لغيره في الشجاعة . ألا ترون

ان غريزة حفظ البقاء تنكص هنا امام هذا الواجب الخيري . واي امرىء لا يرى في اساس هذا الأمر موجباً من موجبات المحبة أيده الشرع فاصبح قاعدة حقوقية ؟

واذا نظرنا الى بعض القواعد المختصة بحالة الضرورة كالمادة ٩٠٤ من القانون المدني الالماني وجدناها عائدة الى فكرة الاسعاف الناشئ عن المحبة ايضاً . فقد جاء في المادة المذكورة « ان المالك لا يمكنهُ ان يمنع غيرهُ من استعمال شيء مختص به اذا كان استعماله امرًا لا بدَّ منه لدفع خطر حاضر أكبر من الضرر الذي يمكن ان يحلّ بالمالك نفسه من جرَّاء استعمال ذلك الشيء » ويستطيع المالك في تلك الحال ان يطالب بتعويض .

ونصت المجلة في المادة ٢٧ على اختيار اهون الشرين ، ومعنى ذلك انه اذا تعارضت حقوق او مصالح غير متساوية في القيمة فيضحى باقلها شأناً لصيانة الاخرى .

واذا قام شخص مختلّ الشعور ، او ولد لم يبلغ سن التمييز ، بعمل مضر فان فكرة المحبة تدعو الى تعويض المتضرر مما اصابه .

واذا كان المجنون غير مسؤول عن عمله ، فان الضرر الذي حدث يستوجب الاسعاف وان يكن مرتكبه غير مدرك . ويمكن عندئذٍ تحويل موجب الاسعاف الى موجب قانوني .

ولقد جرت القوانين الالمانية والسويسرية والبورتغالية وقانون الموجبات والعقود اللبناني على هذا المنوال ، فاجازت اقامة الدعوى اذا كان المصاب محتاجاً الى الاسعاف ، وكانت ثروة المجنون تسهل عليه اسعافه . ونصّت المادة ٨٢٩ من القانون الالماني على ان العدل يستوجب التعويض في مثل تلك الحال ، وجاء في القانون السويسري « ان القاضي يمكنه اذا اقتضى العدل أن يحكم على شخص ولو غير مسؤول ، باداء تعويض كلي او جزئي من الضرر الذي احدثهُ » واذا نظرنا من جهة أخرى الى الاشتراع المختص بالضمان الاجتماعي (Assurances sociales) فاننا لا نرى فيه تطبيقاً نافعاً لناموس التضامن والتعاون الاخوي ؟

ان الشُراع في العهد الحديث نظروا بعين العطف الى العامل وارادوا ان

يضمنوا له ولعياله الاسعاف في الاوقات التي يكون فيها عاجزاً عن ممارسة مهنته فانشأوا له الضمان الاجتماعي حتى لا يحرم وسائل العيش اذا أُصيب بمرض او عاهة مقعدة او حلت بـه الشيخوخة . فبهذه الوسيلة يقوم المجتمع بتضحية خطيرة إسعافاً لاعضائه البائسين .

قواعد عدلية اساسها محبة الغير

تقدم لنا أن بجانب الاحوال المشار اليها توجد احوالٌ أخرى كثيرة اتخذت شكل قواعد عدلية وجعلت المحبة التي سُميت تضامناً اجتماعياً وتعاوناً ، تتغلب على حب الذات والاخذ بمذهب الانفراد (individualisme) . وهذا يظهر خصوصاً في فكرة استعمال الحقوق الخاصة على وجه لا ينافي مصلحة المجتمع ، وفي الادراك الحالي للمسؤولية ، وفي تحديد مبـدإ استقلال الارادة وفي بعض القوانين المختصة بالعمال كقانون المخصصات العائلية والأجر الأدنى وغيره .

ان مذهب الانفراد الذي كان الشارع يسترشد به في القوانين منذ مئة عام ، لا يتفق مع حاجات هذا العصر الجديد ومصالحه . وسبب ذلك يرجع الى اتساع نطاق التضامن الاجتماعي بجميع اشكاله . فالاحوال التي نرى فيها القيام بعمل او الامتناع عنهُ لا يُودي الى مضرة او منفعة للغير ، اصبحت تقل شيئاً فشيئاً . وهـذا التطوّر حوّل الفكرة القانونية الى سُبُل جديدة . واصبحنا اليوم نراهم يتكلمون عن نسبية القوانين اي كونها منوطة بغاية ، بعد ان كانوا في سالف الزمن يعتبرون الحقّ مطلقاً غير محدّد ، فكلما حولوا الحق عن غايته الاجتماعية ، عدّ هذا التحويل سوء استعمال . ولا يخفى ما لقيته من الاقبال هذه الفكرة التي انتشرت في انحاء العالم .

وهنا نسأل : ما هي الغاية الاجتماعية للحق ؟

ان علماء القانون لم يتفقوا على هذا الامر ولكنهم مجمعون على نقطة واحدة وهي انه لا يمكن ان يكون للحقوق غاية تسمح للناس بأن يضروا بعضهم بعضاً . ولقد أيد الاجتهاد هذه الفكرة وطبقت عليها احكام كثيرة ولاسيما في موضوع الملكية وفي اتباع الطرق القانونية . قال الاستاذ جوسران : « اذا استطاع امرؤ

ان يقول: «لقد احدثت ضرراً، ولكن يحق لي ان احدثه» فقد ارتكب خطيئة ضد المحبة . وجديرٌ بنا ان نشير هنا الى ان المادة ١٢٤ من قانون الموجبات والعقود اللبناني التي نصّت على سوء استعمال الحق وأيدت أحكامه

اما التبعة الجرمية فقد وسّعت دائرة فكرتها . ومهما تكن الاسناد الفنية التي تحتمي وراءها فان هـذه الفكرة الجديدة المستندة الى المادة ١٣٨٤ من قانون الجزاء الفرنسوي، تقوم على اساس حب الغير . وان فكرة الاسعاف هنا تنطوي تحت القرار الاجتهادي الذي اصدرته الهيئة العامة لمحكمة التمييز الفرنساوية في ١٣ شباط سنة ١٩٣٠ . فالضعيف يجب أن يُحمى من القوي، والمار الذي يصاب بحادثة سيارة يمكنه ان يثق بالحصول على تعويض من الضرر الذي اصابه بدون أن يثبت خطأ السائق — وهذا الاثبات يكاد يكون مستحيلاً في غالب الاوقات — وقد كان المصاب في الزمن الغابر لا يستطيع الحصول على تعويض الا اذا اثبت خطأ السائق . ولا يُعفى مالك السيارة اليوم من اداء التعويض الا اذا كان الحادث ناجماً عن قلة تبصّر المصاب او عن قوة قاهرة .

ولا غرو فان الماشي الذي تصدمهُ سيارة مثلاً في مكان منفرد تحت جنح الليل خالٍ من الشهود كما تقع الحوادث في اكثر الاحيان في هذا الزمان، لا يمكنه اذا بقي حيّاً ان يثبت عدم إنارة السيارة او غلوّها في السرعة . واذا طلب مثل هذا الاثبات من المصاب او من ورثته كان الطلب بمثابة رفض لكل تعويض . وعلى هذا المنوال صُرمَ حبل قاعدة عريقة في القدم وهي التي تقول «لا مسؤولية اذا لم يثبت الخطأ» والتي كانت تعدّ حقيقة أولية توارثها رجال القانون خلفاً عن سلف ومن قرن الى آخر ولطالما قاومت كل شيء. حتى الهزّات السياسية العنيفة . فأعادوا من بعض الوجوه حرمة المثل القديم القائل «من يكسر الزجاجة يدفع ثمنها» .

ان حق التعويض في مثل تلك الحال، ايها السادة، تؤيده اعتبارات ادبية شريفة لانهُ يعود بالنفع على المصاب ويتفق مع عاطفة الشفقة على عضو متألم من اعضاء المجتمع .

وهنالك عملية تجري اليوم في كل مكان لانقاذ الجيوب الصغيرة على الاخص

من اعباء التعويضات الباهظة وهي عقد ضمان للسيارات لدى « شركات الضمان » يوجب عليها دفع التعويض عند وقوع الحوادث .

فذلك الاجتهاد الانساني يجب ان يحلّ محل الاستحسان وان يكن بعض المخالفين يعارضونه لاننا في عصر حُكمَ فيه على الانسان بأن يعيش محفوفاً بالخطر ، عصر نرى فيه المركبات السريعة المختلفة تجتاز الشوارع من كل جهة والى كل صوب وتتصادم بشدة وعنف ، عصر اصبحت فيه معرفة اجتياز الشوارع والتسلّل فيها بين السيارات والمركبات فنّاً من الفنون حتى انهم اخذوا يتحدثون عن وجوب تدريب المشاة عليها .

ولا غروَ فان تلك المعدات اذا لم تكن من المتفجرات فهي لا تخرج في بعض الاحيان عن كونها من آلات الموت . ولا يمكن في هذا العصر الذي بلغت فيه الحركة منتهى الشدة والنشاط ان نفكر في مسائل التبعة كما كانوا يفكرون عندما كانت المركبات تُجرّ جرّاً . بل يجب ان يسير الحق في سبيل التطور . فالاحوال الجديدة يجب لها حقوق جديدة . والشريعة الاسلامية نفسها — وهي نهائية غير قابلة للتبدل لانها شريعة مقدسة — اخذت تشعر بضرورة هذا التحول . ألم ترَ المادة ٣٠ من المجلة تنصّ على ان القانون يجب ان يكون مطابقاً لحاجات الزمان ؟

ثم ان المسؤولية الناشئة عن التعاقد وقعت بحكم الضرورات نفسها ، تحت تأثير تلك الافكار التي أوحت بها المحبة . فان محكمة التمييز الفرنسوية في هذه الايام ترى أنه عندما يستأجر احدٌ مركبة لتنقله من مكان الى آخر يصبح السائق مديناً لهُ بوجوب تأمين حياته ويعتبر ملزماً بايصاله سالماً الى المكان الذي يقصده فاذا وقع حادث في اثناء السفر ألقيت التبعة كلها على السائق لانه لم يقم بذلك الموجب ولزمه التعويض . وعلى هذا المنوال من البراعة ، ازيل ما يقوم في وجه المسافر من صعوبة اثبات الاهمال أو قلة التبصر .

وصدر في سنة ١٩١١ قرار مآله ان ناقل المسافر اذا اراد ان يجتنب الحكم عليه باداء بدل العطل والضرر ، وجب ان يثبت للمحكمة ان الحادث نشأ عن قوة قاهرة او عن خطإ ارتكبه المصاب ، وعلى هذا الوجه يصبح الشخص المنقول

واثقاً ، على التقريب ، بانه سينال التعويض لان ذلك الاثبات بالغ اقصى الصعوبة. وانتم ترون ان الدور انعكس هنا بمعنى ان بيّنة الاثبات لا تطلب من المسافر المصاب بل من السائق الذي نقله.

ويحسن بنا ان نذكر في سياق الكلام أن القواعد الجديدة المختصة بالتبعة الجرمية والتبعة التعاقدية أدمجت في المادة ١٣١ والمواد التي تليها من قانون الموجبات والعقود اللبناني وان تطبيقها جارٍ في محاكمنا.

واذا فرضنا — خلافاً لما جاء في المثل المتقدم — أن صاحب سيارة تبرع فدعا احد الاصدقاء، او الاقرباء، او ايّ شخص آخر الى ركوب سيارته مجاناً ثم وقع في اثناء السير حادث أفضى الى قتل الشخص المدعوّ او اصابته بجرح ، فما هي درجة التبعة التي تلقى على السائق وما هي شروطها ؟

انهم يقرّرون على وجه عام — وهذا ما ارتأته محكمة النقض والابرام الفرنساوية — أن السائق لا يكون مسؤولاً ولا يلزمه التعويض الّا اذا كان قد ارتكب خطأ. وهو رجوع الى احكام الحق العام والى الفكرة القديمة المختصة بالمسؤولية.

على أن بعض اهل الرأي يودّون لو تطبق المادة ١٣٨٤ من القانون المدني الفرنساوي التي تقضي كما تقدم بأن يُعطى الماشي المصاب بدل عطل وضرر على اساس التبعة الوضعية (responsabilité objective) من غير اضطرار الى اقامة البينة على الخطإ. ولقد وافق الموسيو جوسران ، ابو قانون الموجبات اللبناني ، على هذا الرأي واستحسنه مبدئياً الموسيو ريبير الذي طالما خالف الموسيو جوسران في كثير من الآراء.

ولا غرو فان المراد تأييده انما هو اداء واجب المحبة في سبيل مصلحة المصاب ، واذا كان الاجتهاد لم يتبع حتى الآن نفس السبيل فان هذه الحركة القانونية القائمة على اساس الاسعاف تستحق الذكر والتنويه.

اما العقود فلم تبقَ بمعزل عن تأثير تلك الاحكام الجديدة التي قلبت رأساً على عقب الافكار التقليدية المختصة بالتبعة بل رأينا بعض القوانين كالقانون المدني الالماني ومشروع القانون المدني المصري الذي وضع سنة ١٩٤٠ يسمح

للحاكم بتخفيض المبلغ المقطوع والمنصوص عليه كجزاء عندما يظهر ان بدل العطل والضرر المتفق عليه بين المتعاقدين كان بالغاً حد الغلو. فهنا لا تعتبر الارادة قانوناً للمتعاقدين. ولا يضمن احترامها الا اذا كانت لا تخالف العدل ولا تؤدي الى ابتزاز مال الغير.

وان ذاك الاهتمام نفسه بالعدل هو الذي أوحى بالنظرية المسماة « ما لم يكن بالحسبان » (l'imprévision) والمطبقة في هذا الزمان في كل مكان سواء أكان في المسائل الادارية ام المدنية. وهي تجيز للقاضي أن يعيد النظر في العقد اذا اصبح باهظ العبء من جرّاء ظروف اقتصادية لم تكن في الحسبان. فقاعدة استقلال الارادة نكصت هنا امام ضغط الضرورات المالية أو السياسية. وبعضهم تطرف في هذا السبيل حتى رأينا احد الكتاب ينشر مقالة تحت عنوان « حقّ امتناع المرء عن ايفاء دينه » يعني أن القانون غالى في التساهل مع المدين حتى انه انترع جانباً كبيراً من حق الدائن. ومما يذكر ان القوانين اللبنانية المختصة بايفاء دين المرهون تسترشد بالروح نفسها.

واننا نجد فكرة التعاون ايضاً بارزة في الاحكام القانونية المختصة بفسخ عقود العمل المنشأة لمدة غير معينة اذا جرى الفسخ في وقت غير مناسب، فان المضرور من هذا الفسخ يُعطى حينئذٍ تعويضاً بالرغم من أن كل فريق من المتعاقدين كان يمكنه بمقتضى العقد ان يضع حداً لمدة التعاقد بشرط ان يرسل تنبيهاً سابقاً الى الفريق الآخر (والمادة ٦٥٦ من قانون الموجبات والعقود اللبناني تؤيد اعطاء هذا التعويض).

ثم ان النظرية المختصة بعيوب الرضى لم تبقَ في نظر فلاسفة الحقوق مسألة ذات طابع علمي لا علاقة لها بروح العدل وبعاطفة المحبة، فان زمن العزلة الشخصية المطلقة مضى وانقضى. وكلّ عقدٍ يبدو فيه عدم تناسب وعدم توازن بين الموجبات يعدّ مخالفاً للعدل كلما ظهر انه نتيجة استثمار أو ضيق او عدم اختبار، او احتياج فريق الى الآخر.

على ان هذا التوسع في فكرة الغبن لم يلقَ تأييداً في القانون المدني الفرنساوي بعد إدخاله في القانون الالماني والقانون السويسري، ثم في قانون الموجبات والعقود

اللبناني (المادة ٢١٤).

III

وعلى اساس التعاون ايضاً بني القانون الفرنساوي المتعلق بالمخصصات العائلية والمؤرخ في ١١ اذار سنة ١٩٣٢ وهو يقضي باعطاء ابي العائلة اجراً خاصاً يفوق ما يستحقه عمله ، نظراً الى الاعباء التي يلزمه القيام بها . اما صندوق تلك المخصصات فيتألف من مبالغ يدفعها ارباب الاعمال والمشاريع لاسعاف العامل المُعيل. ثم انكم ترون ذاك الطابع نفسه على قانون ١٠ تموز سنة ١٩١٥ المختص بالأجر الأدنى للعاملات اللواتي يشتغلنَ بصنع الملابس في بيوتهنَّ . والغاية التي من اجلها تدخّل الشارع في هذا الشأن انما هي منع سوء الاستثمار الذي مُنيت به العاملات اللواتي ليس لهنَّ نقابة تجمع شملهن ، فأدى تدخله هنا الى فشل المبدإ الاقتصادي القاضي بأن يكون اداء الاجر تبعاً لناموس العرض والطلب دون اي اعتبار آخر .

بيد ان تلك الحركة التي يُراد بها تجديد الحق والتوفيق بينه وبين المبادئ الادبية ، تلك الحركة التي تدفع اليها فكرة حب الانسانية لم تقف عند ذلك الحدّ بل أخذت تنمو وتقوى حتى انه ظهر اليوم في فرنسة تيار من الافكار يميل الى معاقبة الشخص الذي ينكص عن مساعدة غيره في وقت الخطر اذا كان قادراً على مساعدته — او ، بعبارة اخرى ، انهم يبحثون بحثاً جدياً في وضع نص عام يقضي بان مجرد النكوص والامتناع يعتبر جرماً ، فيتحول اذ ذاك واجبُ الاسعاف الى قاعدة حقوقية كان رجال القانون القدماء المتشربون روح الانجيل يصوغونها في قالب هذا المثل المأثور : « من قدر وأحجم أجرم » .

على ان الأمرَ الذي لا يزال في فرنسة ضمن دائرة الاماني والآمال ، أُدخل فعلًا في قوانين بعض البلدان الاخرى ، فقانون الجزاء الايطالي الصادر في سنة ١٨٩٠ (المادة ٣٩٨) يفرض غرامة على من يبصر شخصاً جريحاً او واقعاً في حالة خطرة ، او يكون فاقد الحراك او يظهر انه كذلك ، ويحجم عن اسعاف هذا الشخص او عن ابلاغ السلطة أو رجال الامن بشرط ان لا يعرضه الاسعاف لخطر أو ضرر . والمادة ٢٣٦٨ من القانون المدني البورتغالي تنصُّ على « أن كل شخص شهد اعتداء على شخص آخر وكان في وسعه ان يساعده او يمنع وقوع

الجرم بدون ان يستهدف هو نفسه لخطر ، ولم يفعل — يحكم عليه بغرامة ».

أفلا ترون أن واجب المحبة الذي تحوّل هنا الى التزام عدلي يبدو في أتمّ مظاهر جماله ؟

انتهيت ايها السادة من بحثي . فاية نتيجة نستخلص من هذا البيان سوى ان فكرة المحبة هي الينبوع الفيّاض الذي يروي الاشتراع ؟ ان مفعولها كما رأيتم يشمل جميع المواد القانونية ، وتحويلها الى تعاون وتضامن واسعاف يفتح امام الحق ابواب مقدرات جديدة تبشر بفوائد عديدة . فهي التي ادخلت القلب الى قوانيننا بعد ان كانت حتى اليوم رهينة العقل ، وهي التي احدثت في الحق الجزائي انقلاباً كبيراً من حيث الشفقة والعطف على الانسانية وبلغت الحركة من هذا الوجه مدى بعيداً حتى ان بعض فلاسفة القانون كالموسيو دابين اخذوا يبحثون في وضع حدّ لها وحصرها في حالات معينة كي لا تنقلب الفكرة الى سوء استعمال .

على ان النظام العالمي الجديد الذي يتقرر مصيرهُ اليوم في ساحات القتال لا يمكن أن يُبنى بمعزلٍ عن المحبة ، لانها هي التي تدفع الى حبّ الخير الاسمى وادراك الواجبات والشجاعة اللازمة للتنازل عما يجب التخلي عنه لحياة الجماعة ، والى احترام الاشخاص والقيم الروحية التي هي اساسٌ لكلّ مجتمع بل هي تدفع الى ادراك الحق نفسه ، فاذا لم توجد المحبة ، فلا سبيل الى التعاون ولا حياة لمجتمع بغير التعاون . فجلُّ الآمال والأماني التي نطمح اليها هي ان يصبح هذا العالم الواسع الأرجاء مطلعاً للإخاء الاجتماعي ، فيعودُ الى المحبة منارها الكاملُ الحقيقي أعني حبّ القريب باسمى معانيهِ ، وأبهى مجاليه .

السريان والملكيّون

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

توطئة

تعزيزاً لبحثنا عن السريان الملكيين توخينا ان نكتب نبذة في ما نقله عنهم السريان والموارنة من الصلوات والقوانين منذ القرن السابع وأدمجوه في صلواتهم القانونية ورتبهم الاحتفالية . وقد استند السريان في نقلهم هذا الى مسوّغ فصّله المفريان غريغوريوس ابن العبري († ١٢٨٦) فقال ما تعريبه : « منذ عهد يعقوب الرهاوي († ٧٠٨) وجورجي اسقف قبائل العرب (٦٨٦–٧٢٤) اخذت تدرج في الطقس السرياني تسابيح القوانين التي انشأها الكاتب الدمشقي قوزيني[1] ابن منصور والراهب قوسما . . . وبما ان قوزيني لم يتعرّض في تسابيحه للقضايا التي لاجلها حدث الخلاف والشقاق (بين الملل النصرانية) دخلت قوانينه في كنائس السريان شرقاً وغرباً[2] » .

يُستخلص من هذا التصريح ان السريان أكبّوا على مطالعة تآليف آباء اليونان الدينية وصلواتهم الطقسية ولا سيّما تصانيف القدّيس يوحنا الدمشقي († ٧٤٩) ملفان الكنيسة وتآليف صديقه قُزما . وانتقوا منها ما اتقوه وضمّوه الى رتبهم وصلواتهم البيعيّة .

بناء عليه رأينا ان نجعل كلامنا في هذا المقال ثلاثة اقسام نبحث في الاول ما نقله السريان عن الملكيين ، وفي الثاني ما نقله عنهم السريان الموارنة . ونتوسّع في الثالث في وصف الاحتفالات التي تعوّد السريان الملكيون ممارستها في كنائسهم ، ولا سيّما في ديورتهم اثناء اسبوع الآلام العظيم المقدّس . وقد وضعنا بين معقفين « » ترجمة عربية لجميع النصوص السريانية .

[1] كذا في الاصل وهو تحريف « ايوني » اعني يوحنا الدمشقي ابن منصور
[2] ايثيقون ١:٥:٤ صفحة ٦٥و٦٦

اولاً : ما نقله السريان عن الملكيين

التقط السريان من المؤلفات اليونانية تواً ، او من الطقس السرياني الملكي نفسه ، اناشيد وصلوات جمة وأدرجوها في صلواتهم القانونية ، ايام المواسم والآحاد او في رتبهم الاحتفالية كرتبة الميرون وتقديس الطباليث والكنائس والسيامات الكهنوتية وحفلات العرذ والتكليل وتذكارات الآباء والقديسين . وهذه تفاصيلها :

١ ܡܥܢܝܬܐ : المعانيث اي الاغاني وهي اول ما نقله السريان عن اليونان . وعددها في الاصل ٢٩٥ معنيثاً انشأها سويرا بطريرك انطاكية (٥١٢–٥١٨ † ٥٣٨) وافتتح كلاً منها بآية من آيات الكتاب المقدس . وخصصها بالمواسم والآحاد وتذكارات بعض الشهداء واولياء الله تعالى الخ . وقد نهج نهجه فيها يوحنا رئيس دير قنسرين († ٥٣٨) وخلفهُ وفولا مطران الرها عام ٦٢٤ ، يوم كان في قبرس . ونقحها يعقوب الرهاوي عام ٦٧٥ وضمها الى الطقس السرياني . ثم انتقى منها داود بر فولوس ١٧٠ معنيثاً نقلها الى بلاد المشرق ، وحتم ان تُنشد في الكنائس كل يوم في خاتمة صلاة الليل[1] . ومن هذه المعانيث تسبيحة منسوبة في طقسنا الى القديس اثناسيوس الاسكندري (٢٩٦–٣٧٣) . وهي ذات التسبيحة التي يستعملها الملكيون ويسمّونها « المجدلة الصغرى »[2] واولها : « المجد لله في العلى » نرتلها كل يوم في خاتمة صلاة الليل . وقس عليها تسبيحة « اهلنا يا سيد الكل برحمتك » التي يستعملها الملكيون كذلك[3] ونرتلها نحن ايام الصوم الاربعيني في خاتمة صلاة الصبح . ومنها تسبيحة ترتل في اول القداس . وهي موجهة الى ابن الله الوحيد عزّ شأنه ، يرتلها الخورس الملكي اثناء خدمة القداس تلو الانديفونا الثانية وفاتحتها عندهم هي : « يا كلمة الله الابن الوحيد الذي لم يزل غير مائت » . وترتلها كذلك كنيسة اورشليم وكنيسة

١) الشذرات السريانية لبطريرك افاطيوس افرام رحماني ١ : ٤٤
٢) الاسبوع المقدس : طبع المرسلين البولسيين ٢٩
٣) فيه ٥١

انطاكية[١] . واما السريان فيصدّرونها بآية داود : « اعظمك يا ربي الملك » (مز ١٤٤ : ١) ويتناوب في ترتيلها الاقليرس والمؤمنون معاً وقت القداس حينما يزاح السجاف ويطوف الكاهن حول المذبح حاملاً كتاب الانجيل تتقدمه راية الصليب والمبخرة وشمعتان . ونتنبه ان النسخ السريانية الملكية القديمة العهد قد اثبتت نص الترنيمة السرياني بصيغة الغائب وفقاً للسريان وخلافاً للملكيين في يومنا فانهم يرتلونها بصيغة المخاطب[٢] .

اما مؤلف الترنيمة فيعتقد السريان انه سويرا بطريرك انطاكية (٥١٢— ٥١٨ † ٥٣٨) . لكنّ المؤرخين على انهـا تأليف الملك يوسطنيان الاول (٥٢٧ - ٥٦٥) لا يوسطنيان الثاني الاخرم (٦٨٥—٧١١) كما توهم بعضهم[٣] . وحجّتنا في ذلك ان تاوفان المؤرخ ذكر هذه الترنيمة في اخبار السنة ٥٢٨ ورقّاها بارونيوس الى السنة ٥٢٠ . زد عليه ان يوسطنيان الاول على ما اثبت مؤرخو السريان عقد مجمعاً في قسطنطينية عاصمته حضره ثلاثة بطاركة وهم سويرا الانطاكي المشار اليه ، وثاوذوسيوس الاسكندري ، وانثيموس القسطنطيني ، وجمهور من الاساقفة والرهبان القائلين بالطبيعة الواحدة أربى عددهم على الخمسمائة من سريان ويونان . ورحّبت بهم ثاودورا الملكة التي كانت ابنة قسيس سرياني منوفيزيتي من منبج ، واضافتهم عدة سنوات في بلاطها الملكي . وقد افرغ يوسطنيان زوجها كل جهده يعظهم وينصح لهم ليعدلوا عن رأيهم ويوافقوا على عقيدة المجمع الخلقيدوني فلم يرضوا فصرفهم الى مواضعهم[٤] .

فمن ذلك كله يجوز لنا ان نستنتج ان يسطنيان بالاتفاق مع سويرا نظما هذه الترنيمة المحكمة وقرّرا ترتيلها في كنائس انطاكية وقسطنطينية واورشليم .

٣ : ܡܥܘܝܬܐ : التعاظيم . دُعيت كذلك لانها اول لفظة افتتحت بها

١) ليترجيات البطريرك افرام رحماني ٢٠٧
٢) خدمة القدّاس الالهي طبع المرسلين البولسيين ٩
٣) *Les Liturgies Eucharistiques*, par Don F-Y Moreau, O.S.B. page 117
٤) تأريخ مختصر الدول ١٨٦ ، وتاريخ الدول السرياني ٧٨و٧٩ ، والتاريخ البيعي السرياني في اخبار البطريرك افرام الامديّ : تأليف المفريان ابن العبري

العذراء مريم تسبيحتها البديعة (لو ١: ٤٦) . وقد نظم الآباء سبعة ابيات افتتحوا كلًّا منها بآية من آيات التسبيحة كما يستعملها السريان الموارنة حتى اليوم. ثم اقتصر السريان منها على خمسة ابيات فقط، وانشأوا لها ثماني نغمات لكل نغمة اربعة او خمسة ضروب . وهذه التعاظيم السريانية التي يستعملها السريان والموارنة منقولة بلا ريب عن أصل يوناني، كما يلاحظ القارئ من تنسيقها وتركيبها ولهجتها .

٣ : ܩܬܝܣܡܐ : القاتسما اعني المجالس . وتُطلق عند السريان على ترانيم يرتلها الاكليرس بينما يكون المؤمنون في الكنيسة جالسين . وقد نقل منها السريان ١٧٠ قاتسما عن أصل يوناني وخصصوها بالآحاد والمواسم ولم يضبطوا اوزانها ضبطهم للاغاني السريانية البحتة .

٤ : ܣܛܝܟܘܢ : الاسطيخون ويراد به الشطر الاول من آيات المزامير يردف بلفظة هللويه . والسريان يستعملون الاسطيخونات خصوصاً في طقس المعرون وسيامة الاحبار .

٥ : ܡܥܢܝܬܐ : الهتاف وهذا الصنف من الترتيل مقتضب من المانيث المذكورة آنفاً . ويستعمله السريان في طقوس المواسم الربانية ولاسيما في عيد القيامة المجيد وعيد ارتفاع الصليب الكريم .

٦ : ܥܘܢܝܬܐ : الدور ويطلق على بيتين منقولين غالباً عن تآليف يونانية يرتلها السريان بعد تلاوة المزامير أيام الآحاد والاعياد في بدء صلاة المساء وفي قومات الليل .

٧ : ܩܢܘܢܐ : القوانين وهي أوسع ما نقله السريان عن الملكيين . يبلغ عددها في الصحف القديمة ٤٣ قانوناً . منظومة كالطقس اليوناني وفقاً لتسبيحة موسى (خروج ١٥) فتسبيحة حنّة ام سموئيل (١ ملوك ٢) فتسبيحة حبقوق (ص ٣) فتسبيحة اشعيا (ص ٢٦) فتسبيحة يونان (ص ٢) فتسبيحتي الفتيان في اتّون بابل (دانيال ٣) . وهم يرتلون الآيتين الافتتاحيتين من كلٍّ من تلك التسابيح يردفونها ببيتين فبيت ثالث يصدّرونه بالمجدلة . ويختمون القانون بتعظيمة العذراء اي تسبيحتها . وليس للقوانين نغمة مضبوطة كسائر الاناشيد

السريانية . وهي تبرهن على الأمانة في النقل . والى القارئ مجمل القوانين التي ما برح السريان يرتلونها لهذا العهد في صلواتهم القانونية صباح المواسم والآحاد :

١ — قانون عيد الميلاد المجيد . واوله معرباً : « المسيح يتلد فأنشدوا التسبيح . المسيح أقبل من السماء فاخرجوا للقائه . المسيح على الارض تمجد . سبحي الرب ايتها الارض باسرها . واشكروه ببهجة قلبية يا جميع الامم لأنه ممجد » . وهذا القانون هو من تأليف الاب قزما ينشده الاكليرس الملكي سحر عيد الميلاد[1] .

ب — قانون عيد تهنئة العذراء ثاني عيد الميلاد . واوله معرباً : « يمينك يا ربي متشحة بغلبة عظمى ومتلألئة بقوة الاهية بهية . وهذه اليمين الخالدة المدججة بالعز قد حطمت الاعداء وغرقتهم وأنشأت ضمن اللجة طريقاً سوياً لجميع الاسرائيليين » . فهذا القانون منقول بلا ريب عن اصل يوناني . لكننا لم نعثر عليه في كتب الملكيين الفرضية التي طالعناها .

ج — قانون تذكار قتل الاطفال ثالث عيد الميلاد . واوله : « انك قد كرمت وعظمت تذكار الاطفال الذين قتلوا حباً لك . وشرفت اعيادهم وبجلتها . انك مجيد وممجد » .

د — قانون ختانة الرب وعيد باسيليوس وغريغوريوس شقيقه . وقد اشتمل على وصف ختانة الطفل يسوع وعلى تقريظ الملفانين . واوله : « سلك اسرائيل على امواج البحر العرمرمية الشديدة . وتمهدت له الطريق اذ كان يتوهم انه يغرق في قعر البحر . امّا مركبات المصريين فقد اختفت بغتة وأمست الامواه مقبرة لفرسانهم بقوة الرب العظيم وقدرة يمينه » . وهذا القانون مخالف للقانون الوارد في الطقس الملكي الذي يقتصر على ذكر الختانة وذكر باسيليوس وليس فيه ذكر لغريغوريوس[2] .

ه — قانون عيد الانوار او عيد ظهور الرب وعماده . واوله : « أقبلت الآن يا ملكنا من البرية الى سيول نهر الاردن صباح بزوغ النور للبشر . وحنيت

١) المتاون : تصحيح المطران جرمانوس معقد : صفحة ٢٦٣

٢) المتاون : صفحة ٢٦٠

هامتك للعماذ كي تنقذ الانسان صورتك وتخلصه من كتائب الظلمة وتنجيه بيمينك ايها الرب العظيم لانك ممجد » . فهذا القانون البديع هو تأليف القديس يوحنا الدمشقي وفي ترجمته العربية عند الملكيين[١] بعض الفرق عن ترجمة النص السرياني كما يتضح ذلك لمن يقابلهما .

و ـــ قانون عيد تهنئة يوحنا المعمذان . واوله : « هلموا ايها الشعوب نسبح المسيح الاهنا الذي فلق البحر العظيم للشعب الاسرائيلي . فأخرجه وأتى به وأنقذه من عبودية المصريين . لانه ممجد » . وهذا القانون لم نعثر عليه في المناون الملكي . وهو بلا ريب منقول عن اليونانية .

ز ـــ قانون عيد دخول الرب الى الهيكل . واوله : « لاحت الشمس يوماً فوق وليد الغمر الاسفل . اذ تراكمت المياه كالسور من كلتا الجهتين وعبر فيه الشعب راجلاً عبورَهُ في اليبس . وأنشد ترنيماً الاهياً شائقاً وهتف قائلاً : هلمّوا نسبّح الرب الجبار لانه ممجد » . وهذا القانون عينه يرتله الملكيون في العيد نفسه[٢] وهو من تأليف قزما المتوحد .

ح ـــ قانون احد الشعانين واوله : « ظهرت ينابيع الغمر التي لا عدد لها لداعي الرطوبة . وانكشفت وبانت اساسات البحر اذ كانت العاصفة تثير امواجه . فزجرتَهُ باشارتك الخفيّة فتكوّم . وانقذتَ شعبك الغفير وأنجيته فأنشد لك التسبيح يا رب الكلّ لسبب الغلبة » . وهذا القانون هو من تأليف الاب قزما ويوافق القانون الوارد في مخطوطة تخصّنا[٣] .

ط ـــ قانون خميس الاسرار واوله : « انفلق غمر البحر الاحمر بالعصا . وجفّ قعره المولّد الامواج . وصار في الوقت عينه طريقاً وطنه المُزَّل وقبراً للمدجّجين بالسلاح . وأنشدت لله عزّ وجلّ تسبيحة بهجة . المسيح الهنا مبجّل وممجد بالمجد » . وهذا القانون هو من تأليف الاب قزما[٤] .

١) المنّاون : صفحة ٢٢١ ٢) المنّاون : صفحة ٤٢٢

٣) نُسخت هذه المخطوطة الجليلة الضخمة عام ١٧٩٩ وفيها ان البطريرك اثناسيوس دبّاس (١٦٨٥-١٧٢٤) نقلها عام ١٧١٥ الى العربية

٤) الاسبوع العظيم المقدّس . طبع المرسلين البولسيين : صفحة ١١٦

ي — قانون عيد القيامة الكبير واوله : « اليوم يوم القيامة . هلمّوا يا جميع الشعوب لنزدان في الموسم . الفصح فصح الرب . فقد أثارنا المسيح الاله بقيامته و « اجازنا » من الموت الى الحياة ومن الارض الى السماء مترنمين بتسبيحة الغلبة ». وهذا القانون قد انشأه القديس يوحنا الدمشقي[1] .

يا — قانون الاحد الجديد . واوله : « ان التلاميذ لمّا أنكروا القيامة من بين الاموات . ظهر فجأة مانح الحياة الذي له يجب التسبيح لانه مجيد وممجّد » . ولم نعثر على هذا القانون في الفرض الملكي .

يب — قانون عيد الصعود . واوله : « يجب علينا ان ننشد ترنيمة الغلبة المخلّص الرب الجبّار الذي أجاز الشعب العبراني في بحر سوف راجلاً دون رطوبة . وغرّق في قعره فرعون وجنوده » . وهذا القانون هو تأليف الانبا يوحنا .

يج — قانون احد الفنطقوسطي العظيم . واوله : « ان المسيح الذي يسحق الحروب من أقطار الارض بقوّته وقدرته قد غرّق فرعون ومراكبه في قعر الغمر . فاياه نسبّح كلّنا لانه ممجد » وهو تأليف الانبا قزما .

يد — قانون عيد ارتفاع الصليب الكريم . واوله : « اشار موسى النبي الى الصليب لمّا ضرب بحر سوف بعصاه وفلقه . ومهّد فيه الطريق فسلكها اسرائيل راجلاً . ولمّا ردّ يده على فرعون ومراكبه جمع المياه وحشدها وبذلك مثّل (الصليب) السلاح القهّار بالطول والعرض . ولذا نسبّح المسيح ملك جميع العالمين لانه ممجد » . وهذا القانون هو من تأليف الاب قزما[2] .

يه — قانون احد بشارة العذراء .

بيد ان السريان في نقلهم قانون العذراء الجليلة تأليف يوحنا المتوحد لم ينهجوا نهج سائر القوانين اليونانية التي ترجموها بل توسّعوا في نقلها خصوصاً منذ الاودية الثامنة[3] التي تقابلها في السريانية ابيات تسبيحة الفتيان في اتون بابل[4] .

١) الاسبوع العظيم المقدس : صفحة ٥٠٣

٢) المناون : صفحة ٥٣

٣) المناون : صفحة ١٥٠

٤) الفنقيث الاول : صفحة ٩٨

فنظموا عباراتها عبارةً عبارةً طبقاً للحروف السريانية الابجديَّة طردًا وعكسًا اعني من الالف الى التاء ثم من التاء الى الالف حتى اصبح مجموعها ٤٤ عبارة ولم يضبطوا وزنها وفقاً للنظم السرياني . وقد شئنا ان نثبت نتفاً من هـذا القانون البديع ونُعارض الترجمة السريانية بالترجمة العربية التي صحَّحها السيد جرمانوس معقّد الطيب الاثر ونشرها عام ١٨٩٧ في كتاب المناون :

الترجمة السريانية

فاتحة القانون

ارنّم لك ايتها الطاهرة أحلى ترانيم أبيك القديم داود كنّارة الروح القدس اذ قال : اسمعي يا ابنتي وانظري واصغي الى بشارة رئيس الملائكة التي جاءك بها من العليّ . وها هوذا يبشّرك بفرح لا يوصف * ولعلّك تظنين ايتها المنينة أني بشّرتكِ بهذا مخادعاً . كلا . بل افرح لاني عاينتُ تدقيقاً في كلماتكِ . فابتهجي ايتها الطاهرة لانه حيث شاء الله التفت حدود الطبيعة بأمر خالقها . . .

باركوا الرب

قال النورانيّ : تقبّلي ايتها العذراء النقيّة كلمات بشّركِ . تحرّي وتبصّري في فكرة العلي الصادقة . أعدّي جسدكِ ونفسكِ لجابلكِ . فان الخالد رضي ان يتجسم منكِ ويظهر للكون . وانا اهتف بفرح : باركوا الربّ . . .

أجابت الامّ العذراء وقالت للملاك : ان العقل البشري يعجز عن فهم ما تقول . فان السرّ المجيد الذي تحدّثني به يُدهشني . اني لفخورة محبورة ببشارتك . لكني اتخوّف . لان الحيّة ورّطت امّي (حوّا) بين الشجر . واخشى ان

الترجمة اليونانية

الاودية الاولى

فلنرنّم لك ايتها السيدة جدّك داود ضارباً كنّارة الروح قائلاً : اسمعي ايتها الابنة الصوت المطرب . صوت الملاك الذي بشّركِ بالفرح الفائق الوصف . . . يظهر لي انكِ تفتكرين باني انطق بالغشّ والبهتان . فانا اجذل لما ابتني تدقيقكِ الدالّ على صيانتكِ . فثقي ايتها السيدة . لانه متى شاء الاله تصبح كلّ الامور المعجزة السرة سهلة . . .

الاودية الثامنة

الملاك

ايتها البتول الفتاة النقيّة : أنصتي الى جبرئيل متكلماً عن مشيئة العلي الازلية الصادقة . قائلاً نحوك . كوني مستعدّة لتقبّل الاله . لان النير الموسوع بكِ يمازج البشر . فلهذا اهتف صارخاً . باركوا الربّ . . .

السيدة

فاجابت البتول قائلةً . ان العقل البشري يعجز عن فهم المعجزة التي تشير اليها . فانا ابتهج بكلامك . ولكن من حيث انه قد تولّاني الاندهاش فأخشى ان تقصيني من الله

تتكلم بخدعة . الآن اني انتحب لانك تهتف : باركوا الرب . . .

الخاتمة

دعاكِ دانيال جبلاً عقلياً . واشعيا عذراء والدة عمانوئيل . وجدعون القاضي الشهير عايتكِ جزّة . وداود خزانة . وحزقيال باباً . وجبرائيل رئيس الملائكة هتف : السلام لكِ يا ممتلئة نعمة . ربّنا معكِ ايتها المباركة .

بخدعةٍ نظير حوّاء . الآن اني اراك تهتف قائلاً : باركوا الربّ . . .

الخاتمة

ان دانيال دعاكِ جبلاً عقلياً . واشعيا والدة الاله . وجدعون عاينكِ جزّةً . وداود سمّاكِ مقدساً . وآخر صوّرك باباً . واماً جبرئيل تمثّل لديكِ هاتفاً . افرحي يا ممتلئة نعمة الرب معكِ .

وما عدا هذه القوانين الخمسة عشر ، فان السريان قد نقلوا عن اليونان ثمانية قوانين كاملة ضبطوها بثماني نغمات ونظموها لصلوات الآحاد التالية لعيد القيامة المجيد. وما برحوا يستعملون هذه القوانين اجمع في صلواتهم الفرضية لهذا العهد. ثم انتقوا قانوناً لطقس الميرون وقانوناً لسيامة الاحبار . ونشاهد في المخطوطات السريانية القديمة العهد ٤٣ قانوناً[1] منها قانون في تقريظ ابجر ملك الرها وايقونة السيد المسيح . وقانون التوبة الكبير تأليف القديس اندراوس اسقف اقريطش يُرتل بالنغمة السادسة . وقانون لعيد انتقال العذراء المجيدة ، وهو من أبدع وأجمل ما قيل في مناقب تلك السيدة الجليلة .

ومع تمادي الزمان احتذى بعض السريان بمثال اليونان فانشأوا جملة قوانين بلغتهم السريانية توّا. من ذلك قانون نظمه المطران يوحنا سعيد صابوني (+ ١٠٩٥) يرتل في طقس توشيح الرهبان بالاسكيم[2] .

هذا موجز ما نقله السريان عن الآباء اليونان وأدمجوه في صلواتهم وحفلاتهم . امّا صلوات « السهرانة » الموجّهة الى العذراء المجيدة فأغلبها مقتضب من تآليف القديس يوحنا الدمشقي. وقد درج استعمالها في كنائس السريان باللغة العربية لا بالسريانية .

---

١) راجع بيتكاز الشيخ في فهرس مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٨٨.
٢) مخطوطة الشرفة ٢-٥ والآداب السريانية لروبنس دوفال : ٣٩٢

ثانياً : ما نقله السريان الموارنة عن الملكيين

نَسَجَ الموارنة على منوال السريان اخوانهم فنقلوا عن الملكيين عدة صلوات نظموها في كتبهم الفرضية . وحسبنا برهاناً على ذلك ما أثبته آباؤهم في كتاب « الاشحيمة » الذي اتخذه الاكليرس غذاءهم الروحاني يبدونه ويعيدونه كل يوم. فالذي يمعن فيه يعثر على عدة أبيات او نبذ منقولة عن اصل يوناني الى السريانية. والى القارئ انموذجاً منها .

يُقرأ في صلاة مساء الاحد ابتهالٌ الى العذراء الجليلة اوله معرباً : « السلام لكِ ايتها العروس البهية » (صفحة ٣)[1] . وفي القومة الرابعة من ليل الاثنين (ص ١١٢) ترنيمة اولها : « باركي يا جميع اعمال الربّ الربّ » . ففي الأبيات العشرة التالية للترنيمة نشاهد المسحة اليونانية ظاهرةً ظهوراً جلياً . وهي غير موزونة كسائر النغمات المارونية وزناً محكماً . وجميعُها مختومة كمألوف عادة الملكيين في قوانينهم بهذه العبارة وهي : « والملائكة والبشر يسبحونه (تعالى) قائلين باركوه » .

وفي القومة الرابعة من ليل الثلاثاء (ص ١٨١) ابيات مختومة بهذه العبارة وهي : « سبحوه وعظّموه جدًّا وباركوه الى أبد الآبدين » وهي بلا ريب منقولة عن أصل يوناني . وقس عليها ابيات القومة الرابعة من ليل الاربعاء (ص ٢٥٠) المنتهية بهذه العبارة : « سبحوا الرب واسجدوا له وعظّموه وباركوه الى ابد الآبدين » .

أما صباح الاربعاء فتقرأ (ص ٢٦٠) تسبيحة العذراء الجليلة تليها سبعة أبيات هي نفس الابيات التي يرتلها السريان بالنغمة الاولى واولها : « [illegible] انتِ فخر المسكونة جمعاء » .

وفي القومة الرابعة من ليل الخميس (ص ٣٢٢) ابيات مختومة بهذه العبارة : « ويسبحون هاتفين مباركٌ انت يا اله آبائنا ارحمنا » . وكذا الابيات

---

١) الارقام تدلّ على صفحات الاشحيمة المطبوعة سنة ١٨٧٢ في مطبعة الاباء اليسوعيين ببيروت

الواردة في القومة الرابعة من ليل الجمعة (ص ٣٩٢) والبيت الوارد في الصفحة (٤٥٠) وتعريبه: «السلام ملك ايتها القديسة سيدتنا» وأبيات القومة الرابعة من ليل السبت (ص ٤٦٠). فجميع هذه الأبيات التي تسبقها تسبيحة الفتيان في اتون بابل منقولة بلا ريب عن اصل يوناني منذ قديم الزمان. ويقاس عليها سبعة ابيات يترنم بها الاكليرس الماروني صباح الآحاد والمواسم مسبّقة بتسبيحة العذراء.

على ان الترانيم المشار اليها لم تكن في اصل وضعها موزونة وزناً شعرياً. بيد ان آباء الموارنة استدركوا الامر فضبطوا وزنها وأحكموه وافرغوها في قالب سرياني بحت. وتُعتبر من هـذا القبيل ايضاً جميع الأبيات الموقعة بوزن «ܕܟܡܚܘܐ» فهي في أصل وضعها منقولة عن تصانيف الآباء اليونان وقوانينهم.

ثانياً: حفلات اسبوع الآلام العظيم في كنائس السريان الملكيين وأديارهم.

تتمة لمقالنا عن السريان الملكيين نضيف الى ما سبق خلاصة الحفلات والصلوات التي اعتاد اكليرسهم ولاسيما رهبانهم ان يمارسوها في الكنائس او الديورة اثناء اسبوع الآلام العظيم المقدّس ننقلها عن مخطوطة نفيسة تخصّ الفيكنت فيليب دي طرّازي الجليل وقد أشرنا اليها في مقالنا الاول[1]. وتشتمل تلك المخطوطة السريانية على ٢٤٢ صفحة طولها ٣٠ س. في عرض ٢٩ س. مجلّدة بجلد وخشب قديم مكتوبة بحروف سريانية ملكية ظريفة يرتقي عهدها الى القرن الرابع عشر او الخامس عشر تتضمّن صلوات التريوذي منذ احد الشعانين حتى احد العنصرة تتخلّلها شروح او تعليمات طقسية بالعربية لها شأنها لدى محبي الآثار البيعية. وقد تركنا تلك الالفاظ العربية على اصلها دون ان نحرّفها او ننقحها. ولم نضف الى الاصل سوى شروح اوائل العبارات السريانية فقط.

١) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] الرسم الاول: صفحة ٥٢٠

١ً — ترتيب ليلة احد الشمن(١

افتتح الناسخ مخطوطته الثمينة بهذه العبارة الجليلة : « ܒܚܝܠ ܬܠܝܬܝܘܬܐ ܫܘܝܬ ܐܘܣܝܐ » اي : « بقوة الثالوث المساوي في الجوهر » واستلى : نكتب التريوذي من ما يُخدَم من احد الشمن الى احد العنصرة . اوّل ذلك ليلة احد الشمن . صلاة المساء الاغريبنية . ܒܪܟܝ ܢܦܫܝ ܠܡܪܝܐ . باركي يا نفسي الرب (مزمور ١١٣) ثم المزمور الاول . والمزمور ١٤٠ وغسك عشرة : ܩܘܩܠܝܢ ورفاقها حتى يصيروا عشرة[٢] . ثم سطيخون بالنغم السادس . اوله معرباً . « اليوم جمعتنا نعمة الروح الحيّ القدّوس وأحضرَتنا . . . » . تليه المجدلة ثم ܥܘܢܝܬܐ الزمار[٣] . ونتول ثلث قراءات . الاولى من كتاب كون الدنيا (تكوين ٤٩ : ١ - ١٢) . ويقول الشماس : « فلنقل كلّنا . . . » ثم « اهّلنا برحمتك يا سيّد الكل[٤] » ونكمّل الخدمة .

ونخرج بالباعوث ونصلّي استشراري ستة ابيات بالنغمة الاولى . تعريب اوّله : « ايها الروح الحيّ الكلي قدسه الذي علّم الرسل ان يتفوّهوا بألسنة غريبة » . وعند الرجوع نصلّي بالنغمة الثامنة للشمن : « افرحي وابتهجي جداً يا مدينة صهيون » . وهي اربعة ابيات .

ويصير تبريك الخبزات كالرسم . حينئذٍ يبتدوا بالقراءات .

٢ً : صلاة سحر(٥ احد الشمن

بعد الستة مزامير ثاوس كيريوس باللحن الاول : لمّا أتمّت لعازر . . . » ذكصا بالرابع : « لمّا دُفنا معك بالمعوذية . اوشعنا لابن داود » ويقال البوليالاون : « سبّحوا الرب » . ثم تقول هذه الاستيخونات ثم الزمار : « من افواه

١) كذا ورد لفظ « الشمن » بالشين والعين وفقاً للاصل السرياني . والا فلو كان النقل عن اليوناني لقال « الصن » . ذلك لخلو اليونانية من الشين والعين

٢) يريد بذلك عشرة ابيات تنشد بعد آيات المزامير

٣) الزمار : آية من الكتاب تسبق قراءة الاسفار المقدسة

٤) هذه الصلاة يرتلها السريان كما قلنا ايام الصوم الاربعيني في خاتمة صلاة الصبح

٥) ان الملكيين يبدأ يومهم الطقسي كما ترى من السحر اما السريان والموارنة فمن المساء

الشبان والاطفال هيأت تسبيحة . ܦܣ̄[1] ايها الرب ربنا ما أمجد اسمك في الارض كلها » (مز ٨) . والانجيل من متى (٢١ : ١—٢٢) . ويقبل الاخوة الانجيل وهم مرتلين مزمور الخمسين . واذ يقبلوا الانجيل يفرق عليهم الاكليياريش أغصان الزيتون . ويبدوا بالقانون ويعملوا كل اودية اثنا عشر قطعة ويعاد الارموس في الخورصين .

قانون الليل وضع الانبا قزما[2] . وفي نهاية القانون يرتلون « قدوس الله » والاطروبارية . وللوقت نخرج بالباعوث[3] بالشمانين مرتلين : « لما اتت . . . » والاخرى : « لما دفنا معك . . . » والقنداق . ويدوروا في ارض الدير . ويقروا انجيل متى ܪܘ̄ (٢٠٦) وهو ينقري سحر . الانجيل الثاني من مرقص ܩܝ̄ܙ (١١٧) والانجيل الثالث من لوقا ܪܠ̄ܒ (٢٣٢) والانجيل الرابع من يوحنا ܨ̄ܚ (٩٨)[4] . وهذا يُعاد في القداس . فاذا كملوا الانجيل مع الابتهالات يأتوا ايضاً الى الهيكل مترتمين : « اليوم أعدوا . . . » ويضعوا الاكتاني الكبيرة : « ارحمنا . . . » والباقي . ويختم الصلاة . ثم يصلّوا الساعة الاولى . ويعطوا جميعُ الاخوة شمعهم للاكليياريش فيحفظه للغسل المقدس فيعطيه للاخوة .

وبعد هذا يكون القداس الالهي ليوحنا فم الذهب . الانتيفونا الاول : اللحن الاول : « أحببتُ ان يسمع الربّ صوت طلبتي » (مز ١١٥) . الانتيفونا الثاني :

---

١) المراد بلفظ ܦܣ̄ : ܦܣܘܩܐ ويُطلق على آية من آيات الكتاب

٢) هو عين القانون الذي يرتله السريان صباح احد الشعانين وقد سبق ذكره

٣) الباعوث من ܒܥܘܬܐ اي الطلبة و لاستغاثة

٤) اعلم ان امونيوس الشماس الاسكندري قسم الاناجيل الاربعة في القرن الثالث للميلاد ١١٦٤ جزءاً . فجعل انجيل متى ٣٥٥ جزءاً . وانجيل مرقس ٢٣٥ جزءاً . وانجيل لوقا ٣٤٢ جزءاً . وانجيل يوحنا ٢٣٢ جزءاً . ولدينا نسخة ثمينة من كتاب العهد الجديد مطبوعة طبعة قديمة متقنة الارقام في هوامشها طبقاً لما اثبته امونيوس . ويظهر ان السريان الملكيين ظلّوا ناهجين هذا النظام في اجزاء الاناجيل . ومن ثم فالجزء ٢٠٦ يقابل الاصحاح ٢١ من متى والجزء ١١٧ يقابل الاصحاح ١١ من مرقس والجزء ٢٣٢ يقابل الاصحاح ١٩ من لوقا والجزء ٩٨ يقابل الاصحاح ١٢ من يوحنا . ولا حاجة الى التنبيه ان جميع فصول الكتاب المقدس الواردة في هذه المخطوطة منقولة عن النسخة السريانية البسيطة كلمةً فكلمةً بكل ضبط واتقان

« آمنتُ وتكلّمتُ » (مز ١١٥) . الانتيفونا الثالثة : « اعترفوا للرب فانه صالح الى الابد » (مز ١٠٧) . ثم القنداق وتقول : « انتم الذين بالمسيح . . . » والزمار والآية : اعترفوا للرب . وتقرأ الرسالة من فيلبوسيوس (٣ : ١) ثم ܗܠܠ الهلال : « سبحوا الرب تسبيحاً جديداً . . . » والانجيل من يوحنا (٦٨) كما سبق .

٣ : عشية احد الشمن

مزمور « يا رب دعوتك » (١٤٠) نسك ستة . اللحن الثامن : « ابتهجي واطربي . . . » الثاني : « ذلك الذي على متن . . . » الثالث : « وافى المخلّص اليوم . . . » . ويعادوا الثلاثة . وتقول : « من الآن تُطلق عبدك » و « قدّوس الله » وما يتلوها . و « يا والدة الله » وما يتبعها . وتختم . اما مطانيات فلا يكون الّا بصلاة النوم .

٤ : سحر الاثنين العظيم

بعد الستة مزامير نقول الليلويا بالثامن بصوت عظيم ولحن لذيذ وتهوّل . ثم هذه الطروبارية باللحن الثامن : « ها هوذا الختن السماوي » . ونقول ثلاث قاتسمات مزامير . ونقول ميمر الذهبي الفم في جفاف التينة . او المقالة السبعة والسبعين من تفسير بشارة متى . ونقول مزمور خمسين ونبتدي بالتريودي الثلثة تسابيح . نعمل كل تسبحة اثنا عشر . وفي الآخر نعيد الارموس في الخورصين .

ارموس : « لذلك الذي بالأمر الالهي . . . » ثم القانون باللحن الثاني ليوم الاثنين : « في تلك الساعة الهائلة . . . » ثم اكسيفرس . هذه القطعة تقال يوم الاثنين والثلثاء والاربعاء . القانون الثامن : « اني اشاهد عرسك يا مخلّصي . . . » . وتقول : « جيّد الاعتراف للربّ . . . » وقدّوس الله وما يتلوها . وتضاف الساعة الاولى بدون قاتسما . والنبوات والانجيل وبعد « المجدلة » باللحن الخامس : « أيّ شيءٍ شابهتُ الّا التينة . . . » ونتمّ الساعة الاولى .

ونبدأ الساعة الثالثة : يدقّ الناقوس ثلث ضربات . وتقال الثلثة مزامير والليلويا وقاتسما . وللوقت ينصبون منارتين ويضعون عليها شمعتين ويبتدي المتقدّم في الكهنة في اوّل بشارة متى الانجيلي الى ان يكمل الثلث منها . وبعد

ذلك يقولون : « مبارك الرب في كل يوم ... » ونتم الساعة الثالثة .

الساعة السادسة . يدقّ الناقوس ستة ضربات . وبعد الثلثة مزامير المعروفة يقولوا قانيها من المزامير . ويقولوا الثلث الثاني من بشارة متى . كترتيب الثالثة . ونختم الصلاة .

الساعة التاسعة . يدقّ الناقوس تسع ضربات . وبعد الثلثة مزامير المعروفة يقولوا قانيها من المزامير . ونكمّل مقالة متى الانجيلي . وكالترتيب المتقدّم نتم الصلاة وبعدها المقارزمي .

٥ : عشيّة الاثنين العظيم

صلاة اشبارين تقول : « باركي يا نفسي الربّ ... » ثم الابروجيازمانا[1].

٦ : سحر الثلثاء العظيم

يدقّ الناقوس نصف الليل ويصلّوا صلاة نصف الليل . ويدقّ الناقوس البولاد ويبتدي المتقدم بالستة مزامير والليلويا بالثامن وعليها : « ها هوذا العريس السماوي ... » ثلث مرات . ونقول ثلث قانيات مزامير وقانيها باللحن الرابع : « يا ايها المؤمنون فلنسابق العذارى الحكيمات ولنُضئ مصابيح نفوسنا ... » ونرتّل ابيات العذارى والمصابيح[2] . ونقرأ مقالة ٧٨ من تفسير متى في العشر عذارى . ونقيم نصفين الاول بعد القنداق والآخر بعد التاسعة . ثم نقول التسبيحة الثامنة . اثنا عشر . والتسبيحة التاسعة لوالدة الله . ونقول : « قدّوس الله ... »[3].

ونضيف الساعة الاولى بلا قانيها . والنبوّات والانجيل ونتمّ الساعة الاولى .

الساعة الثالثة . نصلّيها وعليها قانيها من المزامير . ونقرأ نصف بشارة مرقس البشير . ثم « مبارك الرب في كل يوم ... » ونتم الساعة الثالثة .

---

١) يُستنتج من ذلك ان السريان الملكيين كانوا حتى القرن الخامس عشر يؤجّلون القداس الى عصر النهار

٢) يقيم السريان ليلة اثنين الآلام حفلة العذارى العشر ويسمّونها « النهيرة » . فاتفاق الملكيين معهم في ذلك برهان على كون هذا الطقس قديم العهد

٣) ان السريان لا يذكرون العذراء مريم ولا يستعملون التقاديس الثلاثة قطعاً في اسبوع الآلام

الساعة السادسة . نصلّيها وعليها قانتها مزامير ونتم مقالة مرقص البشير و « فلتسبقنا رحمتك سريعاً . . . »

الساعة التاسعة . نصلّيها بقانتها مزامير . ونقرأ نصف مقالة لوقا وبعد ذلك : « ولا تسلّمني . . . » ونتم الصلاة .

٧ : عشيّة الثلثا العظيم

« باركي يا نفسي الرب . . . » يلي ذلك ابيات في وصف الخاطئة التي دهنت قدمي المخلّص بالطيب . ثم النبوآت والانجيل وخدمة الابروجيازمانا « في تناول الاسرار . ذوقوا خبز السما . وكاس الحياة . واعلموا ان الرب صالح » .

٨ : سحر الاربعاء الكبير[١]

نتلو المزامير الستة السحريّة وقانتها باللحن الثالث : « قد سكبت الخاطئة عليك يا ربّ الكلّ ميروناً كثير الثمن . . . » ويقرأ القارئ من قول الذهبي الفم : اوله : سائر الاوقات توافق الذين يريدون التوبة . ثم تسبيحة ثامنة ارموس . وبعدها « افاضت حالًا المرأة ميروناً فاخرًا . . . » . ونقول تريصاجيون ونضيف الساعة الاولى بلا مزامير . والنبوآت والانجيل ونتمّ الصلاة .

الساعة الثالثة . نصلّيها كاملة بالمصوريين . ونقول تمام بشارة يوحنا الانجيلي . وفي هذه الساعة يجتمع الاخوة كلهم في الدير ثم ينطلقون الى الكنيسة ويصلّوا المكارزمي اي التطوبيات . وعند فراغها يستغفر الاخوة من بعضهم بعض ويقفوا قائمين ويقدّموا الرئيس پولي خرونيون اي سنين كثيرة[٢] . ويكون هو واقف مكانه . ونودّع المطانيات من هـذه الساعة وما نعود نعمل في الكنيسة مطانيات ولا بسلطين .

٩ : عشيّة الاربعاء الكبير

نقول : « يهوذا العبد الشرير . . . » ويخرجوا بالايصوذن والانجيل : ايها النور البهي . والابركيمن والنبوآت . وبعدها الانجيل ونكتمل قدّاس البروجيازمانا .

١) اثبت الناسخ تارة لفظ « عظيم » وطورًا لفظ « كبير » ولكلا اللفظين لفظ واحد في السريانية وهو « رَبا » عظيم او كبير

٢) يظهر ان القرّاء لم يكونوا يومئذٍ يعرفون معنى « پولي خرونيون » فشرحها الناسخ

١٠ : سحر الخميس الكبير

يدق الناقوس نصف الليل . ويدق ناقوس البولاد . ويبدوا بالستة مزامير السحرية . ويقال الليلويا في اللحن الثامن وعليها طروبارية باللحن الثامن : « عندما استنار التلاميذ الالهيون . . . » تقال ثلاثة دفوع . ثم مزمور الخمسين والقانون . ونعيد الارموس مرتين . ونعمل كل تسبحة اثنا عشر وبالاخير نعيد الارموس مرتين .

قانون الليل . وضع الانبا قزما : « انفلق غمر البحر بالعصا . . . » وهو ذات القانون الذي ترتله الكنيسة السريانية الى هذا اليوم . ونقول ميمر الذهبي الفم . اوله : دعتنا الضرورة ان نخاطب محبتكم اليوم بكلمات يسيرة . ثم التسبحة الرابعة : « لما سبق النبي حبقوق . . . » وهلم جرا . وبعد القانون : قدوس الله وما يتلوها . ونضيف الساعة الاولى بالمصوريين . ونقرأ النبوآت والانجيل . ونحل الصلاة[1] . وباقي السواعي نصليها في اوقاتها خلوا من مطانيات .

١١ : عشية الخميس الكبير

يدق الناقوس ثامن ساعة بعد ان نكون قد صلينا التاسعة ونبتدي بصلاة المساء بمزمور : « يا رب دعوتك . . . » وعند كمال النبوآت يقول الشماس : « الى الرب نبتهل . . . » فيقول الكاهن : « لانك قدوس . . . » . ويقولوا آجيوس . والكاهن يقول الصلاة السرية . والرسالة من قورنثية (اقور ١١ : ٣ —) . الانجيل من متى (٢٦ : ١ —) . ونبدأ بقداس باسيليوس . وعوض الشاروبيكون نقول ثلاثة دفوع : « اتخذني يا ربي واجعلني اليوم يا ابن الله شريكاً في عشاء اسرار قتلك . فاننا لسنا نقول سرك الخفي لاعدائك . ولسنا نعطي قبلة كيهوذا . لكننا نعترف بك مع اللص . اذكرني يا ربي عندما تأتي بمجد ملكوتك العظيم » . وبعد الافشين الذي يقال برا قبل اخذ البركة يصير الغسل .

١٢ : ترتيب الغسل

يأتي الكاهن ببدلة وقدامه الشمع مسرج والتمياطن (المبخرة) مع رئيس الكهنة قدام الباب الكبير ويصنع سغل ؟ للغسل . ويبارك الكاهن . ويبتدوا

---

[1] ٢) حلّ الصلاة : من السريانية ܫܪܐ اي ختمها وأطلق الشعب

بزمور خمسين . ويصلّوا التسبحة الخامسة من قانون الخميس باللحن السادس . ثم يصلّوا القطع المختصة بالغسل وهي خمسة . ثم كرازة : « بالسلام الى الرب نبتهل . . . » ويصلّي الكاهن افشين سرّاً : « ايها الاله الجواد العزيز الرحمة . . . » ويرفع صوته قائلاً : « لانه لك يجب التسبيح والتوقير والسجود مع الآب والروح القدس . الآن . . . . » . وينادي : ايريني باسي . والشمّاس يقول : « احنوا رؤوسكم للرب » . ويصلّي الكاهن : ايّها الرب يا من اعلنت لنا بتواضعك وتذلّلك . . . »

ويبدأ الكاهن بقراءة انجيل الغسل (يوحنا ١٣: ٣—٥) . وقد نسخ الناسخ خلال الاسطر السريانيّة التي نقلها عن الانجيل المومأ اليه هذه العبارة : والرئيس يكون منتصب ينزع ثيابه ويتزر بنشفة في وسطه ويصبّ الماء في المغسل ويبدأ يغسل ارجل تلاميذه وينشفها بالمئزر الذي اتزر به .

واستتلى الناسخ : ويكونوا اثنا عشر لا غير[1] . ويبدوا من البوابي الى الاقلوم الى الاكليسارشي . فانه هكذا يجب من الاصاغر الى الاكابر . ويكون الرئيس منتصب يعمل كل ما يحويه هذا الفصل حرف حرف وكلمة كلمة .

ثم يكمّل الانجيل : « ولمّا اتى الى شمعون كيفا . . . (يو ١٣: ٦—١٧) . وبعد ذلك يصلّي الكاهن هذا الافشين سرّاً : « ايّها الرب الاهنا انك كمثل كثرة رحمتك أخليت ذاتك . . . »

وللوقت يترنّموا بالاودية الخامسة التي ليوم الجمعة بعد ان يتباركوا كلّهم من ماء الغسل . ويدخلوا الى الهيكل . ويقولوا مزمور البركة . ويعطوا الاخوة البركة . وينطلقوا الى المائدة وهم مرتلين مزمور (١٤٤) . ولهم ان ياكلوا طبيخ بزيت . ويشربوا شي . يسير من نبيذ . وامّا سمك فلا وجدنا في تيكون الرومي . واذا جاء عيد البشارة في هذه جمعة الآلام . اي يوم جاء . يؤكل على المائدة طبيخ بزيت ويشرب النبيذ . واما سمك فلا يكون .

١٣ : سحر الجمعة العظيمة

لا تُصلّى صلاة نصف الليل . يدقّ الناقوس الساعة الثالثة من الليل . ونصلّي

---

[1] يريد ان الذين تُغسل ارجلهم ينبغي ان يكونوا اثني عشر شخصاً

الستة مزامير والليلويا وطروبارية باللحن الثامن : « لما استنار التلاميذ . . . » تقال ثلاثة دفوع . ويكرز الشماس الكرزة[1] الاولى كلها . وبعدها يبدا الكاهن : « عوض كل من أتى وحضر . . . » ونقرأ الانجيل الاول من يُحنّا (١٣ : ٣١—١٨—١) وهو انجيل الوصيّة . فان كان الرئيس حاضراً فلا يقرأه غيره . والّا الكاهن صاحب السبّة[2] . وبعده نبتدى الانيفونات الاولة . وتعاد كل واحدة من الترنيمات : « الانتيفونا الاولى باللحن الثاني . تآمر العظماء والسلاطين . . . »

ثم نقرأ الانجيل الثاني من يُحنا (١٨ : ١—٢٨) . ثم « انتيفونا باللحن الخامس . اليوم يهوذا الخائن يغادر معلمه . . . »

ونقرأ انجيل ثالث من متى (٢٦ : ٥٧—٧٥) وانتيفونا باللحن الثامن : « جمهور اليهود الذين قبضوا عليك . . . » .

ونقرأ انجيل رابع من يُحنّا (١٨ : ٢٨—٤٠ و١٩ : ١—١٦) وانتيفونا باللحن السادس : « ذلك الموشح بالبهاء والجلال . . . »

ونقرأ انجيل خامس من متى (٢٧ : ٣ ٣٣) وانتيفونا باللحن السادس : « ان موتمر اليهود الغاشط الجيل . . . »

ونقرأ انجيل سادس من مرقس (١٥ : ١٦—٣٢) . ونصلّي المقارزمي باللحن الرابع . « بواسطة العود صار ابونا آدم غريباً عن الفردوس . . . »

ونقرأ انجيل سابع من متى (٢٧ : ٣٣—٥٤) وقانيا باللحن الرابع : « اليوم تكلّل ابن الله باكليل شوك . . . » ونقرأ ما فسّره الذهبي الفم لهذا الانجيل على الصليب .

ونقرأ الانجيل الثامن من لوقا (٢٣ : ٣٢—٤٩) ومزمور ارحمني يا الله . ونبدأ بالتريودي : « التسبيحة الخامسة . وضع الانبا قزما : اليك ابتكر . . . »

ونقرأ الانجيل التاسع من يحنّا (١٩ : ٢٥—٣٧) على « سبّحوا الرب . . . كل اجناد الملائكة اخذهم الخوف . . . »

---

١) المراد بالكرزة : المناداة او اللوطانيا . ومن الغريب ان السريان يسمّونها احياناً « لوطانيا » بلفظ يوناني . اما الملكيون فيسمّونها « كرزة » بلفظ سرياني بحت !

٢) السبّة : من السريانية ܫܒܘܥܐ اي الاسبوع

ونقرأ الانجيل العاشر من مرقص (١٥: ٤٣–٤٧) وبعده : « المجد لله في العلى ... » ويكرز الشماس « ارحمنا » ورفاقها . ويصلي الكاهن جهراً « لانك اله رحيم ... »

ونقرأ الانجيل الحادي عشر من يحنا (١٩: ٣٢–٤٢) وبعد ذلك يترنموا بهذه الاستشراريات باللحن الثاني : « ان يهوذا الخائن الدافع ... »

ونقرأ نبوات اليوم والانجيل الثاني عشر من متى (٢٧: ٦٢–٦٦) وبعده نقول : « جيد الاعتراف للرب ... وتريصاجيون وطروبارية .

فان كان قد اضاء الصباح نبدأ الساعة الاولى . والّا نستريح قليلاً . وعند طلوع الشمس ندق الناقوس الصغير ونجتمع الى الكنيسة ونبدأ بالساعة الاولى . وفي الساعة السابعة من النهار ندق الناقوس الصغير ويجتمع الاخوة كلهم في الكنيسة ونبدأ بالساعة الثالثة . ونضيف اليها السادسة والتاسعة والمكارزمي بلا لحن . ثم الامانة (قانون الايمان) وبعد ذلك : « نيّح اللهم واغفر واترك الزلّات ... » وابانا الذي وطروبارية باللحن الثامن : « ما بين لصّين ... » واربعين كيرياليصون . ثم نقول : « فليكن اسم الرب مباركاً ... » ومزمور البركة ونختم الصلاة .

١٤ : عشيّة الجمعة العظيمة

في الساعة الحادية عشرة ندق الناقوس ونبتدي بصلاة الغروب : « باركي يا نفسي الرب ... كل المسكونة تبدّلت ... » . ونقرأ النبوات . والزمار . والرسول من قرنثية الاولى (اقور ١: ١٨ و٢: ١–٢) والهلال والانجيل من ثلاث بشارات (متى ٢٧: ١–٣٨ ولو ٢٣: ٣٩–٤٣) ومتى ٢٧: ٣٩–٥٤ ويوحنا ١٩: ٣١–٣٧ ومتى ٢٧: ٥٥–٦١) و « اهّلنا برحمتك يا سيّد الكلّ ... » . وما نقول تريصاجيون الّا هذه الطروباريّة : « ان يوسف الحسن الشكل احدر من الخشبة جسدك الطاهر ... » ولا نعمل ابروجيازمانا ولا قدّاس .

يجب ان تعلم انه في اديرة فلسطين ليس احد يأكل في هذا الصوم الصلبوتي(١)

(١) الصلبوتي من يحتمل اعني الصلب

طعاماً. وبهذا امروا الرسل. فان كان قوم قد ضعفت قوتهم فليُعطَوا خبزًا وماء فقط.

١٥ : ترتيب التجنيز الالهي ليلة السبت الكبير

اول ذلك اذا صارت الساعة الثانية من الليل. هذه للديارة. وامّا في العالم ان ارادوا كذلك. والّا يكون نصف الليل. يأتي القندلفط يعمل مطانية للرئيس ويفتح الكنيسة ويحطّ كرسي خشب قدام باب القديس او قرّاية بين الخورصين ويجللها بستر من ستور المذبح. ويضع الانجيل المفضّض والامفوري الكبير الذي للجسد يكون احسن الموجود ويضعه على القرّاية. ويضع الصليب والمراوح في عصيّها في مشاريق القرّاية. ويلبس رئيس الكهنة والكهنة جميعهم والشمامسة البدلات كامل. ويعتر الشماطن (المبخرة) ويناولها لرئيس الكهنة. ويضع عليها البخور الطيّب. ثم يبخّر الانجيل الموضوع على القرّاية..

ويرفع رئيس الكهنة صوته ويقول: «مباركة هي مملكة الآب والابن والروح القدس». ويبدأ بمفرده بحسّ لباقة باللحن الخامس: «انا نعظّمك باجمعنا ايها المسيح مخلّصنا...». ثم يدور ويبخّر الصمدة والجماعة وكل الكنيسة. ويرجع يبخّر الصمدة والقسوس. وفي نهايته من البخور ياخذ الشماس المبخرة منه ويناولها للكاهن الذي هو اكبر القسوس فيبخّر كلّما عمل رئيس الكهنة. وبعده ياخذها ثاني القسوس الى حيث ينتهوا البخور الجمع والشمامسة ايضاً يبخّروا. ويعيدوها الخورص الثاني ايضاً. وعند فراغهم يبتدي الخورص الاول بالمزمور الكبير (١١٨) وعلى كل اسطيخن منه قطعة مماً هو مرتّب قدّامك. «ڡ‍ٯ: طوبى للذين بلا عيب... انا نقرّب لك باجمعنا ايها المسيح مخلّصنا...» الى الآية (٧١) – ثم يكرز الشماس: «ايضاً وايضاً ساعد وخلّص...» والكاهن الذي يتّفق ان تكون المبخرة بيده يعلن قائلاً: «لانه لك يجب كل تسبيح...». وهو بنفسه يبدأ بصلاة هذه القطعة التي هي من الجزء الثاني من المزمور الكبير (٧٢–١٣١) وفي قراءتها يبخّر الصمدة والرئيس والقسوس وكل الجماعة.

ثم يصلّوا الخورصين جميعاً هذه القطعة: «في الحقّ نسبحك معاً...» ثم

يكرز الشماس : « ايضاً وايضاً . . . » . والكاهن الذي نوبة البخور له يعلن قائلا : « لانه لك هي الولاية ولك هو المُلك . . . » . ويبدأ بالجزء الثالث على المزمور الكبير باللحن الثالث « جميع الاجناس والقبائل لك تسبح . . . » ويعيدها الخورص الآخر . ويكملوا المزمور الكبير (١٣٢–١٧٦) . وفي الاخير يعيد الخورصين : « جميع الاجناس والقبائل لك تسبح . . . » .

ثم ان الشمامسة الانجيلية يأخذوا المراوح بايديهم والصليب ايضاً مثل ما هم بعصيّهم . والقناسطة يتناولوا الشمع . ثم يضع رئيس الكهنة الانجيل الموضوع على الكرسي على كتفه الأيسر . وينتصب متوجّه نحو الشرق قدامه . والمراوح وراءه . وشمّاس قدّامه بالمبخرة ويروحوا على الانجيـــل من فوق راس رئيس الكهنة . ويدخلوا الى الهيكل متخطّرين واحد بعد واحد . كل واحد برتبته . ويدوروا حول المائدة المقدسة تلث دورات مصلّين بأعلى اصواتهم : « مُبـــارك انت يا رب » ثم « جميع جمهور الملائكة . . . » . ثم يخرجوا من الباب الذي بجنب التقدمة . فاذا وصلوا الى وسط الكنيسة يقف رئيس الكهنة وهو حامل الانجيل والكهنة حواليه من يمينه وشماله والمراوح من خلفه يروحوا على الانجيل . والمبخرة قدّامه . وهو والجميع متوجّهين نحو الشرق . فاذا تموا صلاة القطع المذكورة يصرخ الشمّاس الذي بيده المبخرة : صوفيًّا اورثي . فيدخلوا الى موضع الصمده مصلّين كلّهم : « يوسف ذلك الحسن الشكل . . . » الى حدّ قوله : « أدخله ووضعه في قبر له جديد » . فيضع رئيس الكهنة الانجيل عن كتفه في مكانه على الكرسي . ويكون الانجيـــل واقف مستند . ثم يسجد له رئيس الكهنة تلث سجدات ويتبارك منه . وكذلك الكهنة على رتبتهم والجماعة . فاذا فرغوا من السجود للانجيل المقدس كما رُسم يشلحوا[1] لرئيس الكهنة بدلته . ثم يشلحوا هم بدلاتهم . وللوقت يصرخ صاحب النوبة : « المجد للثالوث الاقدس المحيي المساوي بالجوهر » .

وامّا في القيامة فاذا فرغوا من قطع التجنيز يقولوا : « مبارك انت يا رب . . . » ورفاتها من غير ان يروحوا . واذا فرغوا منها يكون الذين يحملوا

١) يشلحوا من محمد اي نزع وخلع

المراوح والصلبان قد حملوا وتهيّوا . ويحمل رئيس الكهنة الانجيل وهو مكشوف على كتفه الايسر . ويحمل القسوس الناقور الذي كان الانجيل ملفوف فيه باربع قرن فوق راس الرئيس . ويدخلوا الى المذبح متخطّرين واحد بعد واحد وهم قائلون : آجيوس بلحن رفيع لذيذ الى ان يكملوا الثلث دورات المذكورة ويطلعوا الى وسط الكنيسة ويكملوا باقي الطقس . ويقولوا على تقبيل الانجيل : « لك انت المتوشّح . . . » وبعدها : « يوسف ذلك الحسن الشكل . . . » ويشلحوا الجميع بدلاتهم .

وللوقت يصرخ صاحب النوبة : « المجد للثالوث الاقدس . . . » فيبتدئ واحد بورع واحترام الستة مزامير . ثم يقول الكاهن الاكتاني والاعلان وثاوس كيريوس بالثاني وعليها : « يوسف ذلك الحسن الشكل . . . » تعاد ثلث مرات . ثم مزمور خمسين .

وتبدأ بالقانون باللحن السادس . الاربع تسابيح الاوّليات قول الاب مرقص اسقف اراثوسيّون . والاخريات قول قزما . نقول الارموس اولاً ثم نعيده في الخورص الاخير ونمسل القطع الذي بعده اثني عشر غيره . واخيراً نختم في الوسط بين الخورصين : « لذلك الذي أخفى قديماً في قعر الامواج . . . » . وبعد القانون يقول : « المجد لله في العُلى » الكبيرة . ويبدّل الكاهن حلّته ويخرج بالايصوذن مع الانجيل . ويقولوا اجيوس اثوس وطروبارية « يوسف ذلك الحسن الشكل » ونبوّة حزقيال (٣٧ : ١—١٥) ورسالة من (اقور ٥ : ٦—٩ وغلاطية ٣ : ١٣ و١٤) ثم الانجيل الثاني عشر من قراءة الليل من متى (٢٧ : ٦٢—٦٦) وتحلّ الصلاة .

١٦ : ترتيب عشيّة سبت النور .

ومن شاء يعمله وهو تقليد . يدقّ الناقوس في الساعة العاشرة ويبدّلوا الكهنة بالبدلات الحمري ويقفوا قدام المذبح الكبير وبيد كل واحد شياطن (مبخرة) ويحطوا البخور ويدوروا حول المذبح مرّتين بصوت هادي متخشع ويقولوا : « غلة مجيدة . . . » وما يتلوها . ويبخّروا المذبح والكنيسة كلّها دفعتّين . ثم يرفع الكاهن صوته قائلاً : « مباركٌ انت في هيكل مجدك الاقدس . . . » . ويكون ابوذياكن واقف قدّام باب المذبح الملوكي فيجاوب آمين . ويبدأ الشمّاس

بكرز . والكاهن يصلّي صلاة خلف المذبح . ويكون هناك قنديل سرج . فاذا تمّ الصلاة يسرج شمعة ويرفع يده ويصلّب بالشمعة على المذبح قائلاً : « نور المسيح ينير الكلّ » . ويلتفت الى الشعب ويعلّي صوته ويقول : « قومي استنيري . قومي استنيري ايتها البيعة يا اورشليم الجديدة . . . »

حينئذٍ يخرج الرئيس والكهنة بايديهم الشمع والمباخر ويطوفوا الكنيسة كلّها ويسرّح الشعب كله ويستميحوا التبريك من النور . ويصلّي المصلّون : « لك يليق التسبيح يا الله في صهيون . . . » ومزمور ١٤٧ و١٥٠ وعند رجوعهم للمذبح يقول الرئيس : « مبارك الذي ينير كل انسان آتٍ الى العالم . . . » ويبدوا مزمور ١٤٠ ويكملوا الصلاة وقدّاس باسيليوس .

١٧ : ترتيب آخر ليوم سبت النور

وهو كائن من التيكن الرومي . يدقّ الناقوس الساعة الحادية عشر ويبدّلوا الكهنة بالبدلات الحمري . ويبتدي المتقدّم : « مبارك الرب الهنا . . . » ونقول : « هلمّوا نجثُ ونسجد له » . و « باركي يا نفسي الرب » . ويخرجون بالايصوذن والانجيل . ويقول الشمّاس « صوفيا ويا ايها النور البهيج . . . » ويقولوا النبوآت بترتيبها . والرسول الى رومية . ولا يقال الليلويا . والانجيل من متى (٢٨ : ١-١٠) . والقدّاس من باسيليوس . ويكون انحلال القدّاس بعد الساعة الثانية من الليل . ويعطوا الاخوة البركة . ولا يخرجوا من الكنيسة لكن يجلسوا في مواضعهم ويأتي الخازن ويعطي كل واحد كسر خبز وملو كفّ تين او تمر وقدح من خمر .

ويقرأ القارى من اعمال الرسل . يقرأ كل واحد ساعة . ثم يقوم القندلفط ويقرع ناقوس البولاد ويقوم الاخوة . ويبتدي الكاهن : « مبارك هو الاهنا . . . » ويبدوا بقانون السبت الكبير بتأنٍ من دون استعجال باصوات هادئة متّفقة . ونقرأ ما تبقّى من ميمر القدّيس ابيفانيوس الذي اوّله : هذا السكوت العظيم . وبعد السابعة القنداق . وبعد التاسعة نقول : « المجد لله في العُلى » و « قدّوس الله » و « ابانا الذي في السماوات » .

١٨ : سحر احد الفصح العظيم المقدّس

يدقّ الناقوس الكبير ويطفّس القندلفط الكنيسة . ويسرج القناديل ويخرج

الشعب كله الى برّا . وبهيّ مجمرة كبيرة ويكون فيها نار قويّة يحطّها خلف المذبح ويلقي فيها بخور كثير . وآخر في الخورص حتى تعبّق الكنيسة بالبخور . ويبخّر الكاهن المائدة المقدّسة والريشيا (ܪ̈ܫܝܐ الروسا) والكهنة الاخر يكونوا في الذياكونيكن يبدلوا في البدلات البيض ويخرجوا ويأتوا الى الترتكس . ويتقدّم الرئيس وقدامه شمعتين وهو يضي الشمع كلّه ويبخّر كلّهم بالترتكس والشمعتين امامه . ويأتي وينتصب امام الباب الملوكي . وتكون الابواب مغلقة كلّها . وأحد الاخوة يكون واقف داخل الباب . ويضع الرئيس صليب مع البخور قائلاً : « المجد للثالوث الاقدس . . . » فيجاوبوا : آمين .

ويبتدي الرئيس بصوت رفيع :

ܡܫܝܚܐ ܩܡ ܡܢ ܒܝܬ ܡܝ̈ܬܐ ܘܒܡܘܬܗ ܕܫܗ ܠܡܘܬܐ
ܘܠܡܝ̈ܬܐ ܕܒܩܒ̈ܪܐ ܝܗܒ ܚܝ̈ܐ ܘܐܩܝܡ ܐܢܘܢ[1]

« المسيح قام من بين الاموات . ووطئ الموت بموته . ومنح الحياة للموتى الذين داخل القبور واقامهم[2] » . ويكرّر ذلك ثلث مرّات . والاخوة يجاوبوه .

ويقول الرئيس : « يقوم الله فيتبدّد جميع اعدائه » . فيجاوبوه : « المسيح قام من بين الاموات . . . » . ويقول الرئيس : « كما يتبدّد الدخان . . . » . فيجاوبوه : المسيح قام من بين الاموات . . . » . ويقول الرئيس : « المجد للآب والابن والروح القدس . المسيح قام . . . » . فيجاوبوه : « من الابد والى الابد . . . المسيح قام . . . »

ويقول الشمّاس الكرزة الاولى . ويقول الكاهن : « لانه بك يليق التسبيح . . . » بروسخومن . ويقول الكاهن : « السلام لجميعكم » . ثم الزمّار . ويقول انجيل ثاني من القيامة . وبعده « ارحمنا يا الله . . . » . ويذكر كلّ من شاء .

وبعد ذلك يقول الرئيس : « ارفعي ايتها الابواب رؤوسك . . . » فيجاوب الاخ من جوّا « من هذا ملك الجلال » . فيقول الرئيس ثانيةً : « ارفعي ايتها الأبواب رؤوسكِ » . فيجاوب الاخ من جوّا كالاوّل . فيقول الرئيس ثالثة : « الربّ

---

١) لاحظ ان هذا الهتاف الجميل موقّع بوزن مار افرام السباعيّ فنرجّح ان وضعه سريانيّ لا يونانيّ .

٢) الاسبوع العظيم المقدّس ص٥٤٠

العزيز الجبّار . الربّ الجبّار المحارب » . ويدفع الباب وللحين تنفتح الابواب ويدخلوا مرتّلين باصوات شجيّة كأنها برزت من فم واحد : قانون القيامة المقدّسة .

امّا يوم الفصح وجمعة النياح[1] فلا يصلّى غير القانون بمفرده . التسبيحة الاولى : « انظري الى ابنكِ والاهكِ منبعثاً . وافرحي مع الرسول ابتها الطاهرة . وابتهجي ابتهاجكِ السابق ايتها النقيّة . . . »

وبعد الدخول الى الكنيسة يبخّر الكاهن الاخوة كلّهم في الهيكل والمصلّين يصلّوا هذا القانون « تأليف الانبا يوحنا الدمشقيّ . اليوم يوم القيامة : . . . » . وهو ذات القانون الذي ترتّله الكنيسة السريانية لهذا العهد وقد سبق ذكره .

حينئذٍ ينزعوا البدلات ويطفوا الشمع ويجلسوا يترنّموا . ونقرأ قول غريغوريوس ابياكوني : « كان الجند يحرسون قبرك يا فادينا . . . » . واذا كان بقي وقت نقرأ من تفسير فم الذهب لبشارة متّى او من بشارة يوحنا . المقالة الرابعة لكرلّس . ويقوموا يقولوا : « لقيامة المسيح مخلّصنا . . . » ثلثة دفوع . ولا يقال مزمور خمسين .

وعند قولهم « ܫܘܒܚܐ ܠܐܒܐ[2] » في آخر القانون يدخل الكهنة ويبدّلوا . ونسرج الشمس والرئيس يبدأ بازموس التاسعة : « قومي استنيري . قومي استنيري . . . »[3] . ولا نقول آجيوس كيريوس . ثم اكسيفوس :

ܒܗܢܐ ܝܘܡܐ ܩܡ ܗܘܐ ܒܚܝܠܗ ܒܪ ܐܠܗܐ ܡܢ ܓܘ ܩܒܪܐ
ܘܕܫ ܠܡܘܬܐ ܘܒܙܗ ܠܫܝܘܠ ܘܐܪܡܝ ܙܘܥܐ ܒܓܘ ܐܦܕܢܘܗܝ[4]

« في هذا اليوم قد قام ابن الله بقدرته من داخل القبر . ووطئ الموت وانتهب الجحيم والقى الاهوال في قصوره » .

ونقول قطع الفصح الخمسة بالنغمة الخامسة : « اليوم لنا فصح كهنوتي . . . » وهذه القطع تسبق بآية من المزمور ٦٨ « يقوم الله فيتبدّد جميع اعدائه » .

---

١) النياح من ܢܝܚܐ اي الراحة وما برح السريان يُطلقونه على يوم الجمعة التالي لاحد القيامة فيقولون ܥܪܘܒܬܐ ܕܢܝܚܐ جمعة الراحة .

٢) المراد بذلك ان الرئيس يبدأ بقوله : نبارك ونسبّح الآب والابن والروح القدس الخ

٣) هذه الانشودة يرتّلها السريان صباح احد القيامة بعد القانون : فنقيث ٤ صفحة ٣٤٥

٤) هذه الترنيمة وما يتبعها موزونة بالوزن الرباعيّ . ونرجّح ان اصلها سريانيّ لا يونانيّ .

وعند قول الذكصا يخرج الكهنة . ويكون الصليب بيد الرئيس والانجيل مع ثاني القسوس او مع الارشي ذياكون ويكون واقف لزق الرئيس . ويقبل الرئيس الصليب المكرّم والانجيل المقدّس ويقف ماسك الصليب بيديه . ويتقدم الكهنة على رتبتهم ويقبلوا الصليب والرئيس والانجيل وحامله. ويقف في رتبته. وبعدهم المصلين. فالاخوة كلهم الذين في الكنيسة . وبعد فراغ التقبيل للصليب والانجيل ولبعضهم بعض يقرأ الرئيس ميمر الذهبي الفم . ويكونوا الاخوة واقفين وقت قراءته . وهذا اوّله : من كان حسن العبادة لله فليتمتع بحسن هذا المحفل. ثم يقول الشماس: « ارحمنا » وباقي الطلبات. ويختم الصلاة.

ويجب ان تعلم انه من يوم الفصح المجيد الى يوم السبت التاسعة وهذه السبعة كلها تقال هذه الصلاة عوض السواعي وعوض صلاة النوم وعوض صلاة نصف الليل بلا مزامير. وهي هذه: « المسيح قد قام من بين الاموات... » ثلثة دفوع . و« لقيامة المسيح مخلّصنا... » ثلثة دفوع. وهذه القطعة والتي بعدها دفعة واحدة وهي: « اللواتي مع مريم سبقن فاسرعن صباحاً... » ونقول اربعين صوت « يا ربّ ارحم » . و« المسيح قد قام... » ثلث مرات .

القدّاس الالهي . انطيفونا بالنغمة الثانية : « سبّحي الله يا كلّ الارض... » ونقرأ فاتحة اعمال الرسل وفاتحة بشارة يوحنا . ويحلّوا القدّاس ويمضوا الى الغداء الروحاني والجسداني. فالروحانيّ القراءة على المائدة والجسداني الطعام على المائدة.

١٩ : عشيّة الفصح المقدّس

بصلاة المسائية يدقّ الناقوس بالساعة الثانية . ويبدّل الكاهن ويخرج وبيده الصليب وامامه الشمع . ويقف قدام باب المذبح ويبخّر شبه صليب ثلثة دفوع ويبدأ « مباركة مملكة... » فيجاوبوه : آمين . فيقول : « المسيح قد قام... » ثلثة دفوع. وهم يجاوبونه كما كتبنا سحر الاحد . وقس على ذلك سحر وعشيّة الثلثاء والاربعاء والخميس والجمعة والسبت .

٢٠ : الاحد الجديد ويقال احد توما

الاغرينية. يوم السبت بالعشيّ يبدّل الكاهن بشرف ومجد. ويبتدئ: « مبارك هو الهنا... » ويبدوا بصوت مخشّع خلوًا من لحن : « المسيح قد قام من بين

الاموات...» و« هلمّوا نجثُ ونسجد له » ثلث مرَّات. وهكذا نعمل في بدء كل صلاة. واسبارينون وصلاة نصف الليل وسحر السواعي وصلاة النوم. ونقول: « باركي يا نفسي الربّ...» . وبعد الكرزة الاولى: « طوبى للرجل...» والذكصا الاولى باللحن الثامن والاثنتين بالاول . ومزمور ١٤٠ بالاوّل . نمسك عشرة . نقول تلثة لمار توما استشراري ونُعيدهم... ثم يقال الزمَّار و« اهّلنا برحمتك...» وخمسة ابيات. واستيخن بالرجوع نصلّي هذه القطع: « يا للعجب المجيد...» ونقول: « يا والدة الله العذراء...»

ويصير تبريك الخمس خبزات. ويقرأ القارئ من اعمال الرسل ثم قاتساتين. ثم البوليالاون ثم « القانون وضع الانبا يوحنا الدمشقي: « ان التلاميذ لما انكروا القيامة من بين الاموات...» . وهو ذات القانون الـذي ترتله الكنيسة السريانيّة لهذا العهد كما ذكرنا

ثم القدّاس الالهيّ . في ثالث ساعة من النهار يدقّ الناقوس ونصلّي الثالثة والسادسة والزمار والابركسيس والهلّال والانجيل . انتهى .

* * *

تلك زُبـدة الصلوات والقوانين والرتب الاحتفاليّة التي اعتاد الاكليرس السريانيّ الملكيّ ، ولا سيما الرهبان القانتون ان يقوموا بها ويواظبوا عليها اثناء اسبوع الآلام الخلاصيّة . وفيها ما فيها من البراهين الصادعة على استعمال اللغة السريانيّة الجليلة دون غيرها في كليات الرتب وفي جزئيَّاتها عامّةً وخاصّةً . وهي لعمري تستحقّ كلّ تجلّة واحترام. وتدعو من يتبصّرها ويتعمّق في معانيها ومغازيها ان يُشدي بالثناء الوافر على نجابة الملافنة القدّيسين الذين أنشأوها ونظموها . وعلى تقوى الآباء والرهبان الفضلاء الذين مارسوها وأدمنوها .

المساجد والمشاعر

في العصر الجاهلي

من آثار الاب لامنس

القسم الاول

٣

تتمة

لم تكن هذه الأماكن المقدّسة الوحيدة من نوعها في منطقة الحرم . وها ان الاستاذ شنوك هورغرونيه يذكر ، في زيارته مكة المعاصرة ، عددًا من «الحجارة المكرّمة ، حجارة سوداء وخضراء ، أصلها جميعاً أصلُ الحجر الأسود ومقام ابراهيم .»[١] وقد عرض مرتان هرتسان فرضيّة تجعل من قُصَي ، جدّ سراة القرشيّين الاسطوري ، معبودًا مكيًّا ؛ وتجعل من دار النّدوة هيكلَ هذا المعبود .[٢] وهكذا يكون للقرشيين في مكة مقابل ما كان للثقفيين في الطائف.[٣] ولا يخفى ان الدور الذي مثّلته دار الندوة في نظام قريش السياسي لا يزال غامضاً . وما اسرع ما لجأ العلماء الى الشرح اللغوي ، فحوّلوا الندوة ، وهي بيت قُصَيّ ، الى شبه مجلس شيوخ في مكة الجاهلية.[٤]

١) Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 21 واطلب ايضاً Burckhardt, I, 183 . وهناك ذكرٌ لحجارة يلثمها الحجّاج كما يلثمون اركان احدى المصاطب ، راجع ابن جبير : الرحلة ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦

٢) *Zeitschr. für Assyriol.* XXVII, 43... . راجع ، في شأن موقع الدار بالنسبة الى الكعبة ، ابن هشام : السيرة ٨٠ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٣٩ ؛ ابن جبير : ك . م . ١٨١ — وهذا الاخير لم يرَ الّا الموقع التقليدي ، او ما شاء القوم ان يدلّوه عليه .

٣) ياقوت : معجم البلدان (طبعة مصر) ٤ : ١٢–١٣ ؛ وراجع كتابنا في الطائف *Täif*, 66-68

٤) ابن هشام : ك . م . ٨٠ ، ٨٢ ، ٣٢٢ ؛ وكتابنا في مكة *La Mecque*, 62... . اما البحث عن « دار الندوة » في دائرة المعارف الاسلامية فانه يلخّص المعلومات التقليدية دون ان يناقشها.

ومن يعرف ما اتصفت به الجزيرة العربية من الفوضى في النظام السياسي يستغرب ان يكون في مكة منظّمة من هذا النوع ولا تترك أثرًا في حوليّات المدينة . والواقع انه ليس في التاريخ ما يؤيّد هذا الزعم المستند الى تحذلق اللغويين ، وبخيلة الأثريين . ولم تظهر الدار مرّة بمظهر المجلس الجامع يومه « الملأ » او تلك المشيخة القرشية التي كانت تعقد اجتماعاتها في الفضا.[1] ، امام الكعبة ، على نحو عشر خطوات من « البيت العتيق » . وكان اجماع الزعماء المكيّين ضروريًا لايلا. تلك المقرّرات صفة القوانين ، بينا نرى دار الندوة لا تفتح ابوابها الّا لابناء قصيّ وحدهم ، دون غيرهم من اهل مكة .

اما بعد الهجرة فتُسرع الحوليّات القديمة إسراعًا مريبًا في التخلّص من هذا الأثر ، قائلة انه عُرض للبيع على عهد معاوية[2] ، وكأنها تودّ التخلّص من شاهد مزعج ؛ مع انه كان يُعَدّ « مكرمة قريش ».[3]

ولنا في الاسم « عبد الدار » ، يحمله احد ابناء قصيّ[4] — كما في مماثله « عبد الكعبة »[5] — شاهدٌ على وجود هيكل مبني او « دار » لعلّها « دار الندوة . » وهناك في تاريخ « الدار » الجاهلي اشارة تدفع الى النظر . وهي قول بعضهم ان هذا المجتمع القرشي حُوّل فيا بعد الى مسجد.[6] وقد فاته ان الجاهلية لم تميّز تمامًا بين المسجد والمجلس . وها ان السيرة ، ومجاميع الحديث ، وسلسلة الاخبار والنوادر ، واقوال المفسّرين والشرّاح تضع مجالس قريش او انديتها بقرب المسجد الحرام ، بل في داخله حتى تكاد تأخذ من فِناء الكعبة . فنرى حياة مكة المدنيّة والدينية ، في اوائل القرن السابع ، تتمركز في هذا

---

١) وهكذا نرى في المدينة ان المجلس كان يُفتح على الشارع . اطلب مُسلم : الصحيح ٢ : ٢٢٨ ؛ وراجع *La Mecque*, 88, 226

٢) اطلب *Mo'âwia*, 244, 246 ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٤٥ ؛ اسد الغابة ٣ : ٤١ ، ٤ : ٧ . وهم لا يتفقون على اسم البائع

٣) اسد الغابة ٣ : ٤١ ' يصبح مقرًّا للحكومة ، في ابن سعد : الطبقات ١ : ٤٥

٤) البلاذري : الأنساب (المخطوطة المذكورة) ٣٠ (وجه)

٥) اسد الغابة ٣ : ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٢

٦) الاصطخري : جغرافيته (de Goeje) ١٦

الحرم المنكشف لا سقف له.[١] فيبحث المجتمعون في شؤون البلد التجارية ، بينا تمرّ أمامهم مواكب الحجاج في طوافهم التقليدي.

هنا ينبض قلب مكة ، ويختلج دماغ تلك النقابـة المالية المتحدرة من قُصَيّ . وكان كلّ فريق من القرشيين يحرص على احتلال قسم من هذا الحرم للبحث في شؤونه حتى قيل : «لم يكن من قريش فخذ الّا وله نادٍ معلوم في المسجد يجلسون فيه .»[٢] وكانوا كثيرًا ما يخوضون في المناقشات الحادّة من اجل المسائل التافهة ، وهم مستندون الى الجدران في ظلّ الكعبة[٣] ، او محتبون في دائرة الحِجر.[٤] وفي هذا المقام الضيّق كان «المسجد» و«المجلس» يتداخلان حتى لا يميّز احدهما عن الآخر.[٥] ولو صحّ ان «الدار» كانت مجتمعًا لمشيخة مكة[٦] ، او مقرًّا لمجلس بلديتها ، كما نقول اليوم ، لما فهمنا إسراع القوم ، واهتمامهم بان يحوّلوا الى مسجد جامع هذا المركز المدني . واذًا فقد عرفت دار الندوة اجتماعات غير هذه الاجتماعات المدنيّة البلديّة . ولهذا نرى ارباب الحديث ، وقد أنفوا من وجود هذا المسجد الوثني بقرب الكعبة[٧] ، يُسرعون في تحويله على طريقة لا يخفى معناها على احد ، في يومنا هذا .

كانت القوافل بعد رجوعها من الرحلات الرسمية ، «رحلة الشتاء ورحلة الصيف»[٨] ، تحطّ رحالها امام دار النّدوة . «كذلك كانوا يصنعون.»[٩] ومن هناك كانوا يرحلون. وكان رحيل القوافل الكبرى من الأحداث المهمّة في حياة المجتمع ، كانتقال القبيلة في سبيل النجعة ، وتغيير المنازل في البادية . وكلّها

١) اطلب كتابنا *La Mecque*, 73, 136, 175, 298

٢) اسد الغابة ٣ : ١٥٠ .

٣) هكذا كان يعظ النبي ؛ ابو داود : السُنَن ٢ : ١٦١ ؛ اسد الغابة ١ : ١٠٦

٤) وقد يكون هذا المكان محفوظًا لاجتماع السادة . ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢٦ ؛ ابن هشام ٤٧٣

٥) اطلب بحثنا في *Ziâd ibn Abîhi*, 88

٦) الأزرقي (Wüstenfeld) ٦٧

٧) ابن هشام ٨٠

٨) القرآن ١٠٦ [قريش] ٢

٩) ابن سعد : الطبقات ١ : ٢٩ ؛ واطلب *La Mecque*, 78

تقترن بالحفلات الدينيّة ، مرافقةً لإشارة الكُهّان والعرّافين . ولا يشير هؤلاء بالرحيل الّا اذا سألوا ربّ « البيت » الموكولة اليهم حراسته ، فيجيلون القداح ، ويزجرون الطير.[1] وكيف يمكن ان تقف مئات الإبل — بل الألوف كما كانت تمدّ القوافل الكبرى — في ذاك المجال الضيّق . ونحن نعرف ان واجهة دار الندوة[2] كانت مما يلي فِناء الكعبة . وان هذا الفناء لا يتصل بالمدينة الّا بواسطة الطرقات الضيّقة المعروفة « بابواب » المسجد.[3] فينبغي ان نستنتج ان الحفلات الدينيّة ، السابقة رحيل القوافل ، كان يُقام بها في الدار نفسها ، على بعض خطوات من الكعبة.

وفي رجوع القوافل ، اذا حصل ما يمنع توزيع الأرباح على المساهمين ، كان من المتّفق عليه ان يظلّ المال موقوفاً في دار الندوة[4] ، كما جرى بعد وقعة بدر.[5] وهو برهان جديد على صفتها الدينيّة . وفي هذه الدار وحدها ، على قول مؤرّخي مكّة ، كانوا يقومون بالاعمال المهمّة في حياة المجتمع[6] ، تلك الاعمال التي وسمتها الشعوب القديمة جميعها بالصفة الدينيّة . كانوا يحفظون في الدار لواء قُصيّ المعروف « بالعُقاب ».[7] ومن هناك يخرجونه منشوراً دلالةً على قرب الدخول في الحرب . ولعلّنا لا نخطئ اذا قلنا انهم كانوا يحفظون ، في تلك الدار ايضاً ، القُبّة المعروفة ، التي كانت تظلّل البيت ، وتُحمل آن الطراف ، في عُمرة رجب[8]. ولا نرى في أقوال المؤرّخين كلمةً واحدة في هذا الموضوع. ذلك أنهم أخطأوا في فهم دور القُبّة الحقيقي ، واهميّة الطوافات الدينية في حياة مشركي قريش . وفي دار الندوة كذلك ، كانوا يعلنون بلوغ الصبيان سنّ

---

١) راجع بحثنا في *Bétyles*, 85

٢) او بابها كما في ابن سعد: المكان المذكور

٣) راجع *La Mecque*, 87-88 ؛ اسد الغابة ٤: ٥٧

٤) راجع *La Mecque*, 73

٥) ابن سعد: الطبقات ٢: ٢٥ ؛ الواقدي (Kremer) ١٦٨

٦) ابن سعد: الطبقات ١: ٣٩

٧) الاغاني ١٩: ٧٦

٨) راجع *Bétyles*, 61, 78

الرجولة[١]. اما الصبايا فكان عليهنّ ان يدخلن الدار قبل ان يرضين بالخاطب[٢]. وفي كل هذه الحفلات كان من الضروري حضور بني عبد مناف، وهم المتحدرون رأساً عن قُصيّ، واليهم وحدهم كانت حراسة الدار.[٣]

وكيف لا ينكر الباحث، بعد كل هذه المعلومات، بوجود صفة دينية لحرّاس هذه الدار، من كهانة او سدانة، يحتكرها سُراة قريش. وقد أشرتُ، في بحث عن الحجارة المؤلّهة[٤]، الى وجود شيء غامض من هذه المنظّمات الاكليريكية في بعض مناطق الجزيرة، ولا سيما في الطائف حيث كانت سدانة معبد اللات «للأحلاف» في تلك المدينة[٥]. ولقد كان يمكننا زيادة الايضاح والتأكيد، لو كان الرواة والمؤرّخون، الذين نأخذ عنهم، اوفر ذكاءً واقلّ غموضاً. بيد ان معلوماتهم المتبدّدة، المفتقرة الى كثير من التناسق، تعمل على إلقاء نور غير منتظر على تلك العبادة التي كان يوليها القرشيون جدّهم المؤلّه، تلك العبادة التي يشير اليها التقليد بشيء من الخفر، اذ يسمّيها «دين قصيّ.»[٦] ولنُضِف الى ما تقدّم ما كان يناله قبر قصي من الإكرام التقليدي.[٤] وقد لا نخطئ اذا قلنا ان هذا القبر كان من محطّات الاحتفال بالعُمرة المكية، قبل ان تدخل في الشعائر الإسلامية.

اما مؤرّخو الإسلام السنّي فينفقون كثيرًا من الحذق والمهارة ليزيلوا أثر الشرك عن هذه البقايا الجاهلية. ويجتهدون في ايلائها شيئاً من القداسة الإسلامية يعمل، في نظرهم، على صرف انتباه المؤمنين عن هذه المظاهر الوثنية، وتبديد شكوكهم في صلاح هذه الشعائر الراقية الى عهد الشرك الجاهلي. وقد حفظ لنا القديس يوحنا الدمشقي في كتابه عن البِدَع[٧] مثالًا لا يخلو من البذاءة،

١) اليعقوبي: تاريخه ٢: ٢٧٧

٢) الازرقي ٦٥، ٦٦، ٤٦٤–٤٦٥؛ ابن سعد: ك. م. ١: ٣٩

٣) واولهم نشأ في جوار الكعبة، الازرقي ٦٦؛ اليعقوبي ٢: ٢٧٧. وقد يكون هناك تاريخ منذ عهد قُصيّ، اليعقوبي ٢: ٥؛ ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧

٤) *Le culte des Bétyles*, 44   ٥) راجع كتابنا في *Taïf*, 85, 88, 90-91, 109

٦) اليعقوبي ٢: ٢٧٨؛ البلاذري: الانساب ٣٠: وجه.

٧) في مجموعة *P. G.* (Migne) LXIX, c. 766-773. ولم تكن بذاءة التعبير لتوقف

عن هذه المحاولات في إسلام تلك الشعائر القديمة . ولعلّ المثال المذكور — اذا ما انتبهنا لعصر الذي ينقله الينا — اقدم مظاهر لهذا النوع الادبي الذي كان من نصيبه ان يتّسع اتساعاً عجيباً في تطوّر العلوم الاسلامية . وقد عمل النبي على إدخال العُمرة المكية والحجّ العربي في إصلاحه الديني ، عندما أعلن « أن المساجد لله »[1] ، اي انه ينبغي ان تُخصّص للإله الواحد ، اله ابراهيم واسماعيل ، تلك المعابد القديمة ، والحجارة المؤلّهة من أنصاب وأركان وسائر ما كان يوليه المشركون العبادة والإكرام .

بيد ان هذه البقايا الجاهلية لم يتمثّلها الدين الجديد بالسرعة المطلوبة ، فظلّ منها ما يتنافر في مظهره الوثني والتوحيد القرآني الصارم . فكان من مهمّة مؤلّفي السيرة ، وارباب الحديث والتفسير ان يعملوا على التخفيف من هذا التنافر . فخالوا أنهم يحلّون المشكل ، اذا ما ألحقوا هذه الآثار والذكريات الجاهليّة بأسماء مكرّمة كأسماء ابراهيم واسماعيل ومحمد نفسه . حتى اذا لم يوفّقوا الى هذا الإلحاق تصوّروا العلاقات بين هذه البقايا وخديجة ، او عائشة ، او علي ، ومن اليهم من ابطال الإسلام الأوّل.[2] ولعلّ من آثار هذه الغيرة ما نراه من ألقاب غريبة لبعض المساجد كمسجد الكبش[3] ، ومسجد الشجرة ، ومسجد الجنّ.[4] ولا حاجة الى التوسّع في ما تدلّ عليه هذه الأسماء.[5] ولا سيما اسم مسجد الشجرة[6] من عبادات بعيدة عن التوحيد !

المفسّرين القدماء الذين اخذ عنهم القديس يوحنا الدمشقي هذا المثال . أساذجة تلك البذاءة ام مصطنعة ؟ راجع Gaud.-Demombynes, *Pèlerinage*, 185 وهي مصطنعة خاصّة ، اصطناع التعابير الغربية في التفسير والحديث

١) القرآن ٧٢ [الجنّ] ١٨

٢) راجع الجداول الأبجدية في *Bibloth. geograph. arabic.* (de Goeje) ؛ و *Chroniken* (Wüst.) ؛ الازرقي ٤٢٢ ؛ ابن جبير ١١٣ ، ١١٢ ؛ Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 21-22

٣) Dozy. *op. cit.*, 91-92 ٤) ابن جبير : ك م . ١١٠

٥) قابل بما في Snouck Hurgronje. *Mekkaan. Feest*, 87

٦) وهناك « ذات أنواط » وهو مسجد مشهور ، الازرقي ٨٢ ؛ Dozy, *op. cit.*, 19 ؛

وسواء أكانت دار الندوة في اصلها مسجدًا ام لا ، فلا شك في انها كانت ملتحقة بالفناء الضيّق الذي يؤلف الحرم المركزي او حرم البطحاء.[1] وكانت هذه المنطقة ، دون شك ، اقدس مناطق مكة ، وفيها كان يظهر « بيت الله » في بساطته القديمة ، فيُدعى « مسجد الكعبة » . اما بيتا الصفا والمروة فان القرآن ادخلهما في التوحيد ، مؤيدًا صفتهما المقدّسة ، عادًا اياهما « من شعائر الله » ، ومن « المشاعر » ، ومن « المناسك ».[2] وقد يُضاف الى هذه الاسماء احيانًا اسم « المواقف ».[3] ولكنّ التفسير الاسلامي لم يدقّق ، لسوء الحظّ ، في تحقيق هذا الترادف . اذ ظلّ مهتمًا ، فوق كلّ شيء ، بان يجد الآيات على التوحيد الابراهيمي في جميع المظاهر . فصرفه هذا الهمّ عن النقد والمقابلة . أو ليست الكعبة تمثّل آية التوحيد العريق[4] والاحتجاج الدائم على مظاهر الشرك المتعدّدة ؟ لهذا وضعها القرآن وسط العبادة الاسلامية ومركز نظامه الطقسي « فجعلها الله البيتَ الحرام قياماً للناس. . . »[5]

و« ذات الساق » ، شجرة مقدّسة صلّى بقربها محمد : البكري ٤٨٢ ؛ السمهودي ٢ : ١٨١ ولنذكر شجرة الحُدَيبية . وفي « السيرة » ذكر لعدد من الاشجار المقدّسة منها « ذات الرقاع » ، ابن هشام ٢٥٨ ، ٦٦٢ ؛ السمهودي ٢ : ٢١٢ . « مسجد الشجرة » في ذي الحُلَيفة ، السمهودي ٢ : ١٦٢ ، واحيانًا يُسمّى « الشجرة » دون زيادة ، كأنّ التعبيرين مترادفان ، كما تدلّ عليه مقابلة الاحاديث ، راجع الدارمي : السُنن (مخطوطة المكتبة الخديوية) ٢٥٦

١) راجع في حي البطحاء كتابنا ...La Mecque, 88

٢) القرآن ٢[البقرة] ١٢٢ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ؛ ولا يخفى ان فعل نَسَك يفيد أراق الدم في معناها الاصلي (اطلب النسائي : السُنن ٢ : ٣٨ ، وفيه : «انسك شاةً» اي ضحِّ بها) وقابل بها في R. Smith, *Religion of the Semites*, 229 والمشاعر=المناسك ، اطلب اسد الغابة ٣ : ٢٧٢ ، ٥ : ١١٥ ، ١٢٠ ؛ Wellhausen, *Reste*, 118

٣) الطبري : التفسير ٢ : ٢٥-٢٦ . وفي ابن هشام ١٧٣ يصلح ولهوسن كلمة « معشر » « بشعر » . واطلب رأي ابن هشام في هذه القطعة المنحولة ، ص ١٧٧

٤) او الحَنَفيّة « بقايا دين اسمعيل » : ابن قتيبة : كتاب العرب (طبعة محمد كرد علي) ٢٦١ . والنابغة الجعدي يسمّيها « دين ابراهيم » ، اسد الغابة ٥ : ٢ . ولهذا احتاج التفسير الى « تعمير » هذا الشاهد المزعوم على التوحيد الجاهلي فعمّره الى ما وراء الحدّ . وهو من رجال العصر الاموي بل المرواني.

٥) القرآن ٥ [المائدة] ٩٨

وبعد بحثنا في الصفا والمروة، لم يبق من شك في ان القدماء كانوا يقومون حولها بالشعائر التي كانت تُقام حول الكعبة. وكان هناك « بيت »[1] يظهر موضوعاً لهذه الشعائر. وان لنا في الالفاظ المتعدّدة من مشاعر ومناسك ومواقف لدليلا على تعدّد مظاهر تلك الشعائر وتنوّعها. ولكنها لا تفيدنا شيئاً في تنسيقها، ولا في وصفها وتحديدها. ولا تسعفنا مفردات القرآن في ذلك باكثر مما اسعفتنا في شأن تحديد « المساجد ». انا هو الغموض نفسه يحيّر الشرّاح والمفسّرين، كما يحيّرنا اليوم، لدى هذا الغنى في المترادفات. على اننا نعتقد ان « الشعائر » تدلّ اولا على الاماكن المقدّسة، ثم على مجموعة من الحالات والاعمال الطقسيّة الحقها القرآن بالتوحيد[2]، وحرّم انتهاكها وامتهانها.[3] اما « المشاعر » فهي « مواضع النسك » في نظر المفسّرين، اي تلك الاماكن التي تُقام فيها العبادات والتضحية. ولا يخفى ان التعليل اللغوي يؤيّد هذا الشرح، على ما فيه من غموض.[4]

في ديوان حسّان بن ثابت قصيدة يمدح بها احد مشركي مكة فيسمّيه « عظيم المَشعرين وربّهما. »[5] ولا أرى النعت الّا جارياً مجرى النعت القرآني « عظيم

---

١) البخاري (Kr.) ١ : ٤٢٤

٢) القرآن ٢٢ [الحج] ٣٢، وفيها: « ومن يعظّم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ». ثم ٢٢ [الحجّ] ٣٧، وفيها: « والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ». والشعائر هنا تفيد الضحايا، وهو معنى لا يوافق ما ورد في السورة الثانية من القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢: « ان الصفا والمروة من شعائر الله... » ولا ما في السورة الخامسة [المائدة] ١: « يا ايها الذين آمنوا لا تُحِلّوا شعائِرَ الله ولا الشهرَ الحرام... » والمعنى في هاتين الآيتين بعيد عن الضحايا، بل انه في السورة الثانية يدل بوضوح على الاماكن المقدّسة. اطلب Welhausen, *Reste*, 114

٣) القرآن ٥ [المائدة] ٢

٤) اطلب تاج العروس ٣ : ٣٠٤؛ Lane, *Dict.*, IV, 1562. ويضع الحديث « مشاعر » منى، ومُزْدَلِفة، وقُزَح؛ ابن جبير ١٧٣، مُسلم : الصحيح ١ : ٤٤٩؛ الدارمي : المخطوطة المذكورة ٢٦٦. ويُستنتج من القرآن ٢ [البقرة] ١٩٤، وجود « مشعر حرام » في عرفات.

٥) ديوان حسّان ٢ : ٨٨. وقد يكون « المِشْعَر » لغةً في « المَشعر »، اطلب *Chroniken*. W., II, 9

القريتين .»[1] ولا شكّ في ان تأليف القصيدة — وهي مدحة لا طرافة فيها ولا فنّ — متأخر عن ظهور السورة الثالثة والاربعين ، راقٍ الى عهد إسلام الشاعر.[2] اما الممدوح الظافر بهذا اللقب الضخم فيُدعى مطعم بن عدي. كان من سُراة قُريش وأجار محمدًا على اثر رجوعه من رحلته المخفقة الى الطائف. فحفظ له النبي هذه المكرمة ، حتى انه أعلن ، بعد وقعة بدر ، انه لو كان مطعم بقيد الحياة لما تردّد في اطلاق اسرى القرشيين إكراماً له.[3] ومن الممكن ان يكون حسّان قد قلّد بعض سلفائه فاستوحى منهم التعبير المذكور. وهذا الشاعر المشرك ، قيس بن الحُدادية ، يذكر « المَشعرين » في قصيدة مدح بها عديّ بن نوفل المكّي[4] ، ويظهر انه يعيّن مركز المشعرين في منطقة الحَرَم.[5] وهذا التعيين نفسه يُستنتج ، على ما نرى ، من قصيدة للشاعر المخزومي الحارث بن خالد[6] ، في اواخر القرن الاول للهجرة ، يتناول فيها تعبير حسّان بن ثابت.

لم تأخذ الجاهلية العربية بالتوحيد في مظاهرها الدينية. بل كثيرًا ما كانت ترمي الى الثنائية في احتفالاتها وشعائرها كما بيّنا في بحثنا عن الحجارة المؤلّهة.[7] يظهر ذلك في الأعيان المعروفة باللات والعُزّى ، كما يظهر في الطوافات الدينية التي كان يحل فيها الطائفون « بيتين » مؤلّهين[8] ، وكذلك القول عن « الرُّكنين اليمانيّين » والالهين إساف ونائلة. وهكذا كان الطائفون يجتهدون ، في اثناء

١) القرآن ٤٣ [الزخرف] ٣٠ ؛ واطلب *Taïf*, II, 71, 102-103

٢) وهو يسمّي محمدًا « رسول الله » (البيت الرابع) . وينبغي ان يكون تأليف القصيدة بين الهجرة ووقعة بدر

٣) ابو داود: السُنن ١ : ٢٢٦ ، وفيه ذكر احترام محمد لمطعم ، وكذلك اسد الغابة ٤ : ٣٧١

٤) الاغاني ١٣ : ٦ ، وعدي هذا من بني عبد مناف ، ينبغي التمييز بينه وبين عدي آخر كان من الصحابة وذكر في اسد الغابة ٣ : ٣٩٨

٥) *Bétyles*, 75

٦) الاغاني ٣ : ٩٦ - وفي شعر ابشار نرى المشعر = الحَرَم ، الاغاني ٣ : ٢١ ، وقريش المشعر = قريش البطحاء ، اي سراة قريش .

٧) *Bétyles*, 74...

٨) *Bétyles*, 54, 73...

العُمرة والحج ، في ان يجمعوا بين معبدين او منسكين بالإفاضة ، والنّفر ، والدّفع ، وكلّها من اساليب السعي او الطواف الديني . على ان هذا لا يقدّمنا في فهم حقيقة « المشعرين » . وان كانت البديهة تدفعنا حالًا الى التفكير بالصفا والمروة وقد جمعها القرآن ، والحديث من بعده . واي أثرين احقّ منهما بلقب « المشعرين » دالًا على العلاقة بينهما علاقة الازدواج او الثنائية . اما من جهة اللغة فان التعبير قد يظهر الترادف بين « المشعر » و« المسجد » . ومن الممكن ان يكون مُطعم بن عدي ، بصفته من ابناء عبد مناف[١] ، اي من اعظم سراة مكة ، قد قام بالحجابة او بالسدانة لدى المكانين المقدّسين ؛ او ان يكون له ، على الأقل ، بعض الحقوق عليهما . وكان بيته[٢] قرب « المسعى » اي الطريق الجامع بين الصفا والمروة . ولا يخفى ان كلمة « ربّ » في التعبير « عظيم المشعرين وربّها » لما يبرّر استنتاجنا . وهي من المفردات الدينية في لغة قدماء العرب تدلّ على درجة او رتبة في النظام الاكليريكي زمنَ الجاهلية .[٣] وهكذا يكون ابناء قُصَيّ ، ومنهم مُطعم بن عدي ، قد بسطوا نفوذهم على الاماكن المقدّسة الثنوية ، واخذوا يراقبون الحفلات الدينية مستغلّين ما تفيده من ثروة وجاه .

وكان هذا خير طريق لمنع منافسة قد تضرّ بأفضلية الكعبة ، كما كان خير اسلوب في إعداد العمل الجمعي ، وإخضاع تلك المناسك العديدة للبيت الأصيل . وهي سياسة طالما رمى اليها سراة القرشيين في سبيل مصلحة قبيلتهم ، قبل ان يقوم بها النبي باسم الله . وكان حسّان شاعره الخاصّ ، كما لا يخفى ، فلم يكن من الممكن الّا يُطلع النبي على نتاج قريحته . ولم يكن النبي ليدَعه وما تليمه تلك القريحة في ما خصّ الشؤون المكّية . واذًا فلا يمكن ان يكون

---

١) اطلب Wüstenfeld, *Genealog. Tabellen*, V, l. 21

٢) الازرقي ٣١٢ ، ٤٦٣ . وقد حُوّل ، في ما بعد ، الى قصر زاته «القوارير» . ولا يُقصد بالقوارير «المرائي» كما فهمها Gaudefroy-Demombynes, *Pèlerinage de la Mecque*, 134 ، بل انواع الفسيفساء ، كما يظهر من نصوص الازرقي التي اشرنا اليها في هذه الحاشية .

٣) راجع ...Bétyles, 110 . وقد نظّم النبي استعمال كلمة « ربّ » ، مسلم ٢ : ٢٦٩–٢٧٠ ؛ البغوي : مصابيح السنّة ٢ : ١٠٢ ؛ Berceau, I, 205

التعبير «عظيم المشعرين وربّها» قد فات انتباه الرسول، ولا سيما في زمن كان فيه القرآن[1] ينازع القرشيين حقوقهم في مناسك مكة. ولا شك في ان هذا الموقف يدلّ على تساهل النبي تجاه العبادة الوطنية في مجتمعه، كما يدل على رغبته في مخالفة الأسر الكبيرة في مكة. وكان هو نفسه مديناً لمطعم بأشياء لا شك في اهميتها حتى استحقّ مطعم هذا المدح الفخم من شاعره الخاص. ومن الصعب ان لا نرى فيه اشارةً الى شيء من الرقابة على شعائر العبادة القرشية كان يضطلع به مطعم. وهذا قول حسان:

أجرتَ رسولَ الله منهم، فاصبحوا عبادَكَ، ما لبّى، مُلبٍّ وأحرما![2]

وكم كنا نودّ اشارة صريحة الى ما يهمّنا من هذا الأمر. ولا شك في ان مؤلّفي السيرة استغلّوا هذا البيت في سعيهم الدائب وراء الشعر المعاصر للهجرة. فاكتفوا باستخدام ذلك في ترويق حكاياتهم عن رحلة النبي الغامضة الى الطائف.[3] وكان من الحقّ ان يقوموا بأفضل من هذا العمل.

وبعد كل ما تقدّم، لا نستغرب استعمال القرآن «للمساجد» بصيغة الجمع. واذا سمعناه يطالب بحقّ ملكيتها لله، فينبغي ان نفهم المقصود بها كل المؤسسات الدينية في مكة. من الكعبة الى ملحقاتها القريبة كدار الندوة، والحِجر، وزمزم، ومقام ابراهيم؛ الى منسكَي الصفا والمروة. وقد افادنا تدخّل القرآن ما كان لتلك المناسك الجاهلية من أهمية يجتهد الحديث في إضعافها.[4] وبعد ذلك نفهم المناسك الثنوية، كالمواقف والمعابد، كبيرة كانت او صغيرة، والمذابح، والبيوت او الحجارة المؤلّهة ذات الألوان المتعددة، والهيئات المتباينة، والاسماء المتكاثرة من مَشعَر، ومَسجد، ومَنحَر، وموقف، وبيت، وحَجَر، وركن، ومقام، ونصب، وجمرة الى ما شاكل من تلك الحجارة مبنيّة كانت

---

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٠٨، ولا سيا ٩ [التوبة] ١٧-١٩

٢) الديوان ٨٨: ٤

٣) راجع ابن سعد: الطبقات ١: ١٤٢. ولا يذكر حسّاناً ابن هشام ولا ابن سعد. على انني لا اشك في ان حكاية الإجارة التي قام بها مطعم مأخوذة عن هذا الشاعر.

٤) راجع النسائي: السنن ٢: ٤٠-٤١

أو منصوبة، مطروحة على الأرض او مكوّمة، مفردةً قائمةً بنفسها او مقتطعةً من صخور الجبال، نابتةً على شكل المسلّات او مصفوفة على شكل النواويس، تلحق بها الأشجار المقدّسة وتعاليقها من أساحة ونذور متنوّعة. ثم رؤوس الجبال، وفغرات الكهوف والمغاور، المنتشرة جميعها في منطقة مكة، تولي هذه الناحية من تِهامة شكلها الخاصّ وجاذبيتها القوية.

فكان من همّ الإصلاح الديني الرامي الى التوحيد أن يتشلّ جميع هذه المظاهر الجاهلية، جميع بقايا الشرك بما تجرّه من شعائر ومراتب واحتفالات طقسية، كما شاء. ان يتشّل اصحاب تلك المراتب كالحجّاب، والسَدنة، والكُهّان، والعرّافين، وزاجري الطير، وسائلي القِداح، وضاربي الحصى، والكواهن، والساحرات النافثات في العقد[1]، والمكلّفين تنظيم التاريخ وعدّ النسيء، والقائمين على السقاية[2] او توزيع مياه زَمزم، وأدِلّاء العُمرة والحجّ اصحاب الإجازة والإفاضة[3]. كل هذه المظاهر رأى النبي ان يلاشيها في سبيل التوحيد. وهكذا كان استعمال صيغة الجمع في «المساجد» مقصودًا، لتُصبح كلّها لله. ولا نتصوّرنّ مساجد مبنيّة كما نرى اليوم. اذ لم يكن في مكة الّا مسجد واحد له شيء من مظاهر البناء، هو مسجد الكعبة. ولم يكن فيه، أوّلَ الأمر، الا اربعة جدران لا سقف عليها. ثم اخذ القوم يُكثرون فيه من معبوداتهم الحجرية، فاستقبل بين جدرانه، الى جنب الحجر الأسود، أهمّ الحجارة التي كانت مبدّدة في فِناء الكعبة. هي الأركان التي يجتهد الحديث في اخفاء تعدّدها، وطمس اصلها، فيعمل، قاصدًا او غير قاصد، على الخلط بينها وبين زوايا الكعبة[4]. ولا يزال بعض هذه الأركان هدفًا لإكرام الحجّاج حتى يومنا هذا.

نفهم الآن سعة القصد من ذاك التعبير البسيط المظهر: «ان المساجد لله».

١) راجع في كل ذلك Bétyles, 45

٢) اطلب القرآن ٩ [التوبة] ١٩

٣) وهم سُبّاق «المُطوّفين» في عصرنا.

٤) البخاري: ك. م. (Kr.) ١: ٤٠٦؛ ابن حنبل: ك. م. ٤: ٩٤-٩٥، ٩٨؛ مسلم: ك. م. ١: ٤٤٦، ٤٨٦، ٤٨٧؛ Bétyles, 74-75

انما الله يمثل هنا الاسلام ونبيه . واذًا فهي عمل وضع اليد على كل مظاهر الشرك القديم. وهكذا امكن القول: « إنّ الصفا والمروة من شعائر الله . . . »[1] وهو أمر كافٍ في نزع أثر الشرك عن المناسك والمعابد الجاهلية. فليهدأ الأنصار؛ وليخففوا من حماستهم في مجاهدة تلك المناسك[2]. فالنبي أخبر بالأمر، وهو العارف بان سياسة اللين والتساهل والانتظار تؤدّي الى ما لا تؤدّي اليه سياسة العنف والمجابهة . ولعلّ من تطبيقات هذه السياسة الدينيّة الناجحة موقفه مما اشار اليه القرآن في الآية التاسعة عشرة من السورة الثالثة والخمسين وما اوردته « السيرة » بعنوان « الغرانيق العُلى ». وذلك أنه قد يكون تساهل بشأن المثلث الالهي المعروف باللات، والعُزّى، ومناة، على شريطة ان تنحط رتبتهنّ عن رتبة الله[3]؛ « ان الله منهنّ أكبر! » كما قال أوس بن حجر.

يظهر من استعمال القرآن « للمساجد » ان هذه اللفظة، بصيغة الجمع، كانت معروفة مستعملةً في لغة قريش الدينية[4]. ويظهر انها كانت تدلّ، مع لفظة «المشاعر» — وهذه اقرب الى اللهجة البلدية، على ما نرى — على جمهرة المناسك والاحتفالات في العبادة الحجرية في بلاد العرب الغربية. ولِمَ فازت لفظة المساجد على زميلتها في استعمال القرآن، ومن ثمّ في اللغة الدينية الاسلامية؟ لعلّ ذلك للعلاقة اللغوية ما بينها وبين « سجد ».[5] اما هذا الأصل فيكاد يكون مجهولًا في اللغة الجاهلية. ولا اخاله عُرف الّا في لهجات القبائل التي كانت على اتصال مع الارامين في بلاد الشام وما بين النهرين. وقد استعمل القرآن فعل

---

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢؛

٢) النسائي: السُنن ٢ : ٤١؛ مسلم: ك.م. ١ : ٤٨٦–٤٩٠

٣) راجع في مصادر هذا الشأن Noeldeke-Schwally, *Geschichte des Qorāns*, I, 100...

٤) وهي لا تدلّ حتمًا على بناء، اطلب Snouck Hurgronje, *Mekkaan. Feest*, 44, n. 2؛ ثم R. Bell, *op. cit.*, 51...

٥) راجع في معاني « سجد » حماسة البحتري (طبعة شيخو) عدد ١٣٩؛ Salhani - Haffner. *Drei arabische Quellenwerke über die Addād*, 43

« سجد »[١] للدلالة على كيفية الصلاة الاسلامية الدخيلة ، اي التي لم يعهدها البدو في جاهليتهم . فكان على النبي ان يجتهد في سدّ الثُلَم الواهية في تلك اللغة الدينيّة الضئيلة . وكثيرًا ما عمد الى المفردات البائدة القديمة فحمّلها المعاني الجديدة[٢] التي كانت تتضح شيئًا فشيئًا مجاراةً لحركة اصلاحه الديني .

ولا يخفى ان المجال متّسع ، في هذا الموضوع ، لدرس ناحية جديدة من التطوّر اللغوي والنفساني في لغة القرآن . ومن مظاهر هذا التطوّر ان لفظة « المسجد » فازت على مرادفتها لفظة « المشعر » ، في التعابير العربية ، ثم تجاوزتها الى لغاتنا الغربية فاغنتها بكلمة جديدة هي كلمة mosquée .

اما « المشعر » فلا يزال معناه الاصلي غامضًا ، ذاك المعنى الذي كان الجاهليون يفهمونه به ؛ ولعله كان على اتصال بـ« شعر » الذي معناه « عرف » و« حدس ».[٣] فيكون « المشعر » دالًا على المعبد الذي يقوم فيه الكاهن او العرّاف بمعرفة الغيب وتعريفه[٤] . ويكتفي الطبري بشرح « المشاعر » « بالمعالم »[٥] . وهو ترادف غامض لا يقدّمنا خطوة في طريق الحلّ . وقد لا نخطئ اذا فهمنا « المشعر » بمعنى المكان المقرّر للقيام « بالإشعار » وهي عملية تعيّن الاضاحي المعدّة للذبيحة[٦] . ومن ثمّ قد يكون أُطلق الاسم « المشعر » على المعبد نفسه الذي كانت تُقاد

---

١) ولم يستعمل من الفعل الّا صيغة الماضي ، وكأنّها وحدها المستعملة . ولنلاحظ ان هذا الاصل لم تتّسع مشتقاته في اللغة العربية .

٢) من مثل المِحراب ، والحَنيف ، والفُرقان ، والزكاة .

٣) راجع مسلم : ك . م . ١ : ٥٠٠ .

٤) Goldziher, *Abhandlungen*, I, 3, 5, 17-24

٥) الطبري : تفسيره ٢ : ١٦١ – وقد دلّني زميلي الاب صالحاني على شرح « المشاعر » في لسان العرب ٦ : ٨٠ جاء فيه : « المشاعر كل موضع فيه خمر واشجار » واذًا فهو من الامكنة .

٦) ابن السكّيت : تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ٤٠١ ، ٧٢٨ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٦٦ ؛ البغوي : الكتاب المذكور ١ : ١٤١ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٨١ . اما تلك العملية فكانت تقوم بان تُجرح الاضحية قليلًا في جانبها الأيمن ، وهو معنى القول : « اشعرها في سنامها الأيمن » . وقابل بقول الفرزدق الذي اورده الطبري في تاريخه ٣ : ١٠٨ : « فبتّ كأنّي مُشعَرٌ . . . » واطلب Snouck Hurgronje, *Mekk. Feest*, 45

اليه الذبائح فيضحّى بها ، وهو مكان « الشعائر » . وقد رأينا في النصوص القديمة كثيرًا ما تُبدل « الشعائر » بـ« العتائر »[1] . وكأنّ قدماء اللغويين المسلمين رأوا في « العتائر » اثرًا لأضاحي رجب تلك التي تسمّى الرجبيّة ايضًا[2] ، فاعرضوا عنها وابدلوا بها « الشعائر » . ولا يخفى ان رجب كان شهر الاعياد الدينية في العصر الجاهلي[3] . ولهذا شاء الإسلام ان يلاشي ذكره فابدل بالتعبير الدالّ على ضحاياه تعبيرًا أيدته لغة القرآن[4] . على ان لفظة « المشعر » في دلالتها الخاصّة على موضع التضحية ، قرب المعبد ، او المنحر ، الذي كانت تُنحر فيه الشعائر او العتائر ، كانت أضيق من ان تفي بمقصود النبي . فلم يتردّد في تفضيل لفظة المسجد الجديدة الخالية من كل اثر للشرك الجاهلي[5] .

ولم يكن العرب ، في الجاهلية ، يعرفون من الصلاة الا تلك التعابير المقتضبة الجامدة التي تكوّن الدعاء . فكان من إصلاح النبي ، وقد عرف الصلوات الطقسية عند اهل الكتاب ، أن ادخل في الدين الجديد الصلاة القرآنية المعروفة بما تفرض من حركات منظّمة خاصّة « بالسجود » ، سواء أكانت فردية ام جامعة . ولا يخفى انها اجلى مظهر للعبادة الخارجية[6] وقد كرّر القرآن ذكر هذه الصلاة مقترنًا بها ذكر السجود .[7] وهو سبب جديد في الميل الى تفضيل « المسجد » على « المشعر » .

---

١) Wellhausen, *Reste*, 118

٢) اسد الغابة ٥ : ١٤ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ٦٦ ؛ ثم اسد الغابة ٤ : ٢٢٩ ، ٢٦٧ وفيها يُقرّ النبي الترادف بين التعبيرين ؛ ابو داود : السُنَن ٢ : ٣ ، ٥ ؛ العتائر تعني الضحايا المتروكة للسباع ؛ ابن هشام : السيرة ٦٥٩ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ٩ ؛ الدارمي : المخطوطة المذكورة ٢٨٨

٣) وقد ظلّ عيد مكة المهمّ ، اطلب ابن جبير ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ؛ *Bétyles*, 62, 78 . وكان المشركون يخصون هذا الشهر بالعُمرة ، النَسائي : السُنَن ٢ : ٢٤

٤) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢ ؛ ٥ [المائدة] ٢ : ٢٢ [الحجّ] ٣٢ ، ٣٧

٥) لم ترد لفظة « المشعر » في القرآن الّا مرة واحدة (٢ [البقرة] ١٦٤) ، وهي بصيغة المفرد ، وكأنّ القرآن لا يريد ان يعرف الّا مشعرًا واحدًا .

٦) القرآن ٢ [البقرة] ١١٩ ؛ ٢٢ [الحجّ] ٢٧ ؛ ٤٨ [الفتح] ٢٩ . . .

٧) اطلب « سجد » في جداول القرآن .

اما المشعر فنراه مقروناً عادةً بالموقف، اي محل وقوف الحجّاج. و«الموقف» يعيّن حالة الخشوع الطقسي التي يتخذها العبّاد والحجّاج المشتركون بحضورهم في التضحية، عندما يدعوهم الى هـذه الشركة القائم بالذبيحة او السادن. وهو خشوع قصير الأمد تتلوه فجأةً حركة « الإفاضة ». والإفاضة تعني تارةً ذاك الهجوم الصاخب[1]، صخبَ النهر الفائض، الذي يقوم به الحجّاج على الأضاحي[2]، وطورًا ذاك السعي الضاجّ المعروف « بالنفر » او « الإغارة »[3] ينـدفع فيها الحجّاج نحو معبد قريب، وراء القبّة التي تظلّل البيوت او الحجارة المحولة في الطواف.[4] والى جنب كل « مشعر حرام » يذكر التقليد موقفاً خاصاً.[5]

ذلك ان التضحية، وهي ارفع مظهر للعبادة البدوية، كانت تشتمل على ثلاثة اقسام: عملية النحر والاستعداد لها، وذلك في «المشعر» الذي يُدعى أيضاً « المنحر » لهذا السبب. ثم « الوقوف »، وقوف الحاضرين واشتراكهم في عمل المضحّي بالنيّة و« بالدعاء » الصاخب خاصّةً، واخيرًا « الإفاضة » وهي اشتراك الحاضرين بالفعل وتناولهم لحوم الأضاحي. بيد ان التقليد السنّي جهل او تجاهل هذا الترتيب، عاملًا على نشر شيء من الالتباس بين معاني المشعر، والمنحر[6]، والموقف والافاضة. اما في الحجّ الاسلامي فلم يبقَ من معنى « للموقف »، اذ فقد علاقته المعقولة بسائر شعائر الحجّ. ذلك ان الاسلام ألغى الأضاحي لدى المعابد القديمة جميعها. فاصبح الحجّاج يقفون الساعات الطويلة، أمام هذه المحطّات، ولا يعرفون لماذا.

---

١) ثلكّ ولهوسن في هذا المعنى (Wellhausen, *Reste*, 120) ولم يكن مصيباً في شكّه، على ما أرى.

٢) قابل بما في القرآن (٧٠ [المعارج] ٤٢): « الى نُصُبٍ يوفضون »

٣) كما في القول: أشرِقْ ثبير كيما نُغير

٤) *Bétyles*, 59-60

٥) كما في مُزدلفة؛ الطبري: تفسيره ٢: ١٦٤ بالقرب من معبد الاله قُزَح.

٦) الدارمي: السنن (المخطوطة المذكورة) ٢٧٢؛ ابو داود: السنن ١: ٢٢٢، وفيها ان كل ارض في مكة تُعتبر منحرًا.

تأملات

يكتشفها المتأمل في اثناء لذة وسرور، وفي اثناء ألم وحزن

بقلم ادوار مرقص
من اعضاء المجمع العلمي في دمشق

حدثني من اعرفه اكثر من كل الناس، واثق بصحة حسه وحدسه اكثر من كل الناس، قال:

صحبتني في سحابة عمري اوقات لذة وسرور، كما صحبت غيري من توفيق في سعي وعمل، او تمتع بمجتمع لهو وانس، او نحو ذلك من مباهج الحياة. فكنت ارى نفسي في اثنائها حليماً، واسع الصدر، بعيد الغور في التأمل والتفكير، منتبهاً الى خطإي في كثير من ميول لي سابقة واحكام ادبية على الاشياء والحوادث والاشخاص، حتى قلت في نفسي حيا الله هذه الساعات الطيبة من ايام حياتي، فقد اطلعتني على جانب من حقائق الكون، وكأنها هبطت بها علي وحياً سماوياً، مما لم توصلني اليه في عشرات السنين كتبي ودفاتري والابحاث والدروس المحضة المضنية. كان صدري يتسع، ومشاعري ومداركي تحلق الى طبقة عالية في تلك السويعات الطيبة. فاقول: ما اشرف الحياة وصفو الحياة وبهجتها، وما اجدرها نسبياً بالانسان العاقل، او ما اجدر الانسان العاقل بها اذا ترفع عما اعتاده، وعما اعتادته بيئته من خطط عوجاء في امور يحسبها عظيمة جوهرية، وما هي غير اباطيل او شبه اباطيل بحقارتها وضعفها في جنب ما ينبغي ان تهجر وتداس لاجله غير مأسوف عليها، اي في جنب الحصول على سلامة النفس وراحة الضمير وابتهاج القلب واكتساب الثقة والمودة والاكرام عند الخاص والعام، وقد اشار الى ذلك الشاعر العربي حيث قال:

كأنك من كل الطباع مركبٌ   فانت الى كل القلوب حبيبُ

واوضح منه مقصداً واتم ملاءمة لما نحن فيه قول الآخر :

تصوّر الناس كلهم سكناً ومثّل الارض كلها دارا

نعم فليتصور العاقل الناس كلهم احباء تسكن اليهم نفسه بمنى ترتاح ، والارض على طولها وعرضها داراً له تضمن امانه واطمئنانه .

عرفت ان المحبة ذات نفوذ عظيم عجيب ، له اول وليس له آخر . المحبة الانسانية ، اذا اختارها الانسان له مبدأ وديناً في غدواته ورووحاته ، حميد مغبتها ، وعلم علم اليقين انها لا تبقي ولا تذر شيئاً من اثر اعوجاج او خلل او جور في هذا الجار او ذاك القريب او ذلك الصديق . المحبة تجتاح كل عيب وكل نقص ولا تبالي بشيء من هذا القبيل . فالمحبة بطبيعتها بحر زاخر قد يقع فيه من الاقذار والادناس ما لا يحصى ولا يستقصى ، ولكن هيهات هيهات ان يبالي البحر بها بل يقبلها ويحملها ثم يغمرها وينقيها ثم ينساها ويظل البحر مهما بحراً لا يتدنس بها ماؤه . ولا تزول هيبته ولا رواؤه .

المحبة بحر زاخر ، وان شبهتها بالجبل العظيم الشامخ لم تبعد عن الصواب ، فكما انها كالبحر تشبه الجبل ايضاً من حيث انه لا يبالي بايد تعبث في جوانبه ، وحفر تطرأ عليه وحشرات تنساب فيه . الجبل يهضم هذه المكروهات المزعجات كلها ، ويظل على عظمته وشممه مشرفاً على مناظر فتانة خالبة فيقري اللاجىء اليه متعة لناظره وانساً لخاطره .

تأملت المحبة البشرية ، فعرفت تماماً سمو الاديان التي اوصتنا بها وحرضتنا عليها وترحمت على القطب الكبير محيي الدين بن العربي حيث قال :

ادين بدين الحب انّى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وايماني

وصل محدثي في حديثه الى هنا ثم امسك عن الكلام هنيهة ليريح لسانه ويستجم جنانه فقلت له :

ـــ لله درك لقد افدت واجدت في هذه التأملات ، واشعرتني بما كنتُ عنه غافلاً من حسن تأثير اللذة المباحة والسرور الشريف على العاقل . ولكن ، مقابل اللذة والسرور في الحياة ، نرى المًا وحزناً فهل فكرت في اتنابهما وهل استوحيت شيئاً منهما كما استوحيت من اللذة والسرور ؟

— نعم فقد اصابتني مرارًا اوقات حزن وألم واشعرتني كما اشعرت غيري بغرور هذه الدنيا وغدرات الزمان ونبهتني الى الحكمة الرائعة في قول عمر بن الوردي :

قصِّر الآمالَ في الدنيا تفُزْ فدليلُ العقل تقصير الأملْ

— رويدك يا اخي فقد سقطت في تناقض حكمين من حيث لا تدري.

— ما التناقض الذي تعنيه ؟

— الم تخبرني منذ هنيهة ان ساعات اللذة والسرور اقنعتك بان الهناء جدير بالانسان العاقل ، وانه يجب ان يفتح صدره لاغتفار كلّ اعوجاج وخلل سعياً وراء صفو الحياة. والآن تقول ان اوقات الحزن والالم اشعرتك بغرور هذه الدنيا وغدرات الزمان. فكيف توفق بين الشعورين او بين الحكمين ؟

— ليس بينهما تناقض وتنافر خلافاً لما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة . اوَ نسيت اني لما قلت: ان الانسان العاقل ينبغي له ان يتنعم ببهجة الحياة فهي جديرة به وهو جدير بها، اردت بهجة الحياة نسبياً، وذكرت هذا القيد صريحاً. فعليه ان يسعى الى مباهج الحياة النزيهة على قدر ما تواتيه الفرص فلا يجوز ان يضيعها سدًى لدواع ثانوية كما لا يجوز ان يزيد المحن والبلاء على نفسه بسوء سلوكه وسوء معاشرته وحرصه على كل مكايدة ومناكدة واتخاذ مذهب التشاؤم عوض عن مذهب التفاؤل. فليس معنى ذلك اننا جحدنا قلة ثبات الدنيا على حالة رغد وسرور ولا اننا جحدنا غدرات الزمان وحوادثه وكوارثه . بل بعكس ذلك اشرنا من طرف خفي بانجاز الخطة الآنف ذكرها لمكافحة جانب من تلك المزعجات وتلك الكروب . ثم لما قال ابن الوردي بيته الذي تمثلنا به : «قصر الآمال في الدنيا...» لم يشر علي وعليك بالجمود والخمود وعدم السعي وراء شيء من الاهداف في حياتنا . لم ينهنا عن الامل بتاتاً بل نهانا عن الاسترسال في الامال الى حد فاحش يجلب العناء والشقاء مما يقع فيه كثيرون. قال: قصّر الامال . اي اجعلها معقولة محدودة بحيث يتيسر تحقيقها وتحقيق معظمها فيكون لك غبطة ورضى. ولو اراد غير ذلك لاخطأ ولاورد بيته هكذا: اقطع الآمال او اهجر الآمال في الدنيا تفز. فالبلادة وخمول الهمة لا خير فيهما كما انه لا خير

في المطامع الجامحة . والخطة المثلى هي التفاؤل وسعة الصدر مع اتخاذ الحيطة لكل امر على قدر الامكان ومع وضع كل شيء في موضعه وهذا هو لباب الحكمة بل تعريفها عند جمهور من المحققين وهي خطة لم يندم اصحابها قط ولن يندموا .

ـــ صدقت واصبت . ولكن هل اوحى اليك الحزن والالم شيئاً آخر غير الشعور بغرور الحياة بحيث ينبغي للعاقل ان يقضيها متيقظاً لها منتبهاً لطبيعتها غير جازع منها ولا مستغرب فعلها اذا صدمته . هل استوحيت شيئاً آخر غير هذه النظرية التي شعر بها واشار اليها كثيرون قبلك ؟

ـــ انني يا صاحبي لم ادَّعِ ابتكار شيء ولا اكتشاف في ما قلته وساقوله بل اتوخى جمع شمله وايضاح معالمه تذكيراً وتنبيهاً . نعم اوحى اليَّ الالم في اثناء مقاساتي له ان مجرد غيابه وتخلص المرء منه يجب ان يحسب نعمة سابغة لا تعادلها نعمة . وهكذا كنت اعدّ نفسي اسعد خلق الله في كل فترة راحة بين الم والم . وانا لا اكاد اصدق بوجود تلك الفترة المباركة لعظم اغتباطي بها . فلما شفيت تماماً من الداء المؤلم وبعد عني عهد الآلام نسيتها وعدت الى ديدني لا احسب مجرد خلاصي من الالم نعمة وسعادة ، بل اشترط للسعادة الف شرط من غنى ووجاهة ورفاهية عيش في الضروريات والكماليات ونفوذ كلمة الى غير ذلك من الاماني العديدة . وهكذا كان ولا يزال شأن غيري من ابناء آدم . تكون السعادة الصحيحة في كيانهم وحياتهم البسيطة فلا يلتفتون اليها بل يبحثون عنها في اعالي الجو وطبقات الارض واقاصي المعمور ، حتى اذا نابهم مرض او فقر او موت حبيبهم او سجن او مخاوف او اهانات او مجاعة او معضل من المعضلات او نحو ذلك من المضايق احسوا بالنعمة السابغة التي كانت حواليهم ومعهم فلم يعرفوا قدرها ولم يقيموا لها وزناً .

* * *

هذا هو الحديث الحكمي الذي افضى به اليَّ من اعرفه واثق به اكثر من كل الناس . دونته بقلمي آملاً ان ينتفع بــه من المطلعين عليه اهل الحصافة والاعتدال الذين يستحقون التوفيق والانتفاع .

للتاريخ

اعلان الاستقلال

في سورية ولبنان

تمهيد

بعد ان دخلت جيوش الحلفاء سورية ولبنان تبادل الجنرال دي غول ، زعيم فرنسة الحرّة ، والكابيتن اوليفر ليتلتون ، وزير الدولة وعضو الغرفة الحربية الانكليزية ، الرسالتين التاليتين :

رسالة الوزير

بيروت ، في ٧ آب ١٩٤١

عزيزي الجنرال

استخلاصاً لمحادثاتنا التي حصلت اليوم ، اجد نفسي سعيداً بان اجدّد لكم التأكيد بان ليس لانكلترة من مصلحة في لبنان او في سورية سوى كسب الحرب. ونحن لا نرغب في شكل من الاشكال بان نتعدى على وضعية فرنسة. وفرنسة الحرّة وبريطانية العظمى انا تعهدتا بالاعتراف باستقلال لبنان وسورية . ومتى اتخـذ هذا التدبير الاساسي نقرّ عن طيبة خاطر بانه ينبغي ان يكون لفرنسة في لبنان وسورية وضعية فضلى بالنسبة الى اية دولة اوربية اخرى ونحن انا كنا دائماً نتصرف ضمن هذا الروح. ولقد وقفتم على تصريحات رئيس الوزارة بهذا الشأن. واني لسعيد بان اؤكدها مجدداً اليوم لاصدقائنا وحلفائنا الذين نضمر لهم كل عطف وكل مساعدة . وانا سعيد فيما يتعلق بنا بان آخذ مجدداً علماً بتأكيدكم احترام الفرنسيين الاحرار ، بصفتهم اصدقاء. وحلفاء لبريطانية العظمى ، ووفقاً للاتفاقات التي سبق ان عقدت وللتصريحات التي سبق ان ادليتم بها ،

المضي دون ما هوادة حتى النهاية في الحرب ضد العدو المشترك . وانا سعيد ايضاً بتأكيدنا على هذا الشكل تفاهمنا واتفاقنا التامين .

جواب الجنرال دي غول

بيروت ، في ٧ آب ١٩٤١

عزيزي الكابتين ليتلتون

تسلمت الرسالة التي شئتم ان تكتبوها لي كنتيجة للمحادثات التي دارت بيننا اليوم ، واني لسعيد بان آخذ علماً بالتأكيدات التي تتطوعون لي مجدداً فيما يتعلق بتجرد انكلترة عن كل غرض في سورية ولبنان ، وبان انكلترة تقرّ مقدماً بوضعية فرنسة الفضلى وبميزاتها عندما تستقل هذه البلاد وفقاً للتعهد الذي قطعته لها فرنسة الحرة .

واني مسارع في ان اكرر لكم بهذه المناسبة ان فرنسة الحرة ، اي فرنسة ، انما تعتزم المضي في الحرب ، الى جنب انكلترة صديقتها وحليفتها حتى الانتصار التام على العدو المشترك .

اعلان استقلال سورية

ثم دارت مباحثات بين الجنرال كاترو ، المندوب العام لفرنسة الحرة ، وكثير من الشخصيات السورية ادت الى وضع النصوص التالية التي اذاعتها دار المندوبية العامة في ١٦ ايلول ١٩٤١

رسالة الجنرال كاترو الى خالد بك العظم

من فخامة المندوب العام الى دولة خالد بك العظم رئيس الحكومة السورية

حضرة الرئيس

عطفاً على رسالتي المؤرخة في ٤ ايلول سنة ١٩٤١ ، والتي اعلنتكم فيها انه ستجاب قريباً رغبتكم ورغبة زملائكم في انهاء المهمة التي كلفتم القيام

بها ، لي الشرف ان اعلنكم ان صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسني ، وقد اشعرته بالامر ، قبل ان يستلم مهام الحكم.

في الساعة التي تتركون فيها اعباء الحكم وتضعونها بين يدي الحكومة الاولى لسورية المستقلة ذات السيادة ، ارى من واجبي ان اعرب لكم عن امتناني للتعاون المخلص القيّم الذي شرفتموني به

ان هذا التعاون قد اتخذ من الظروف التي نشأ ونما فيها طابعاً خاصاً يزيد في قيمته ، اذ انه تم في وقت دخول الحلفاء دمشق ، اي في وقت ، لو حصلت فيه ازمة حكومية ، لخشي معها على الدولة من البلبلة ، وعلى افكار الاهلين من الاضطراب . وقد تمّ ذلك ايضاً في وقت انبلج فيه فجر العهد السياسي الجديد .

لو كان في الحكم ، في مثل تلك الظروف ، رجال لم يتحلوا بقوة الروح الوطني التي تحليتم وزملاؤكم بها ، لكانوا فضلوا الاعتزال ، غير ان هذا الفكر لم يخالجكم قط ، بل انكم رأيتم ان واجبكم الوطني ، وواجبكم تجاه الحلفاء ، الذين اتوكم بالاستقلال ، يقضيان عليكم بالاستمرار في الحكم ، فلبيتم ندائي وبقيتم في مراكزكم الى الوقت الذي يمكنني فيه ان اعيد اليكم حريتكم .

فروح التجرد التي اظهرتموها في هذه المناسبة مع زملائكم اعضاء الحكومة تشرّف اخلاقكم وتوليكم امتنان مواطنيكم ، كما انها توليكم امتناني ومحبتي ، ذلك الامتنان وتلك المحبة التي ارجوكم مشاطرتها وزملاءكم .

وتفضلوا يا دولة الرئيس بقبول فائق احترامي .

الجنرال كاترو

رسالة الجنرال الى الشيخ تاج الدين الحسني

من فخامة المندوب العام الى فخامة الرئيس الشيخ تاج الدين الحسني ، رئيس الدولة السورية سابقاً

يا صاحب الفخامة

في البيان الرسمي الذي اذعته ، في الثامن من حزيران الماضي ، على اهالي سورية ولبنان ، باسم الجنرال دي غول ، نفسه قطعت فرنسة الحرّة فوراً على نفسها ، بالاتفاق

مع حليفتها بريطانية العظمى ، عهداً بان تضع حداً للانتداب وان تمنح سورية نظام دولة مستقلة ذات سيادة وان تضمن هذا النظام الجديد بمعاهدة.

واليوم ترى فرنسة الحرّة ان الوقت قد حان لانجاز هذا الوعد ، وتحقيق هذا البرنامج ، واول عمل تقوم به في هذا الظرف ، هو ان تضع بين يدي شخصية سورية كبرى تتمتع بثقة البلاد مهام وتبعات تنظيم الدولة السورية الجديدة في استقلالها وسيادتها .

ونزولاً على رغبة الرأي العام الذي تمت باستشارته بدقة ، ارى ، وانا لا استهدف الّا صالح البلاد العام ، ان فخامتكم هي في الظروف الحاضرة اكثر صفة من أي سواها للقيام بتحقيق هذه المهمة الوطنية الكبرى.

لذلك اقترح على فخامتكم ان تتسلموا مقدرات سورية ، متخذين لقب رئيس الجمهورية السورية ، مع الميزات والواجبات المترتبة على هذا اللقب ، وان تؤلفوا بهذه الصفة حكومة الدولة في اسرع ما يمكن من الوقت .

واذا قبلتم هذا الاقتراح — وهذا ما اتمناه — يمكنكم ان تتأكدوا من ان مساعدتي التامة ومؤازرتي لن تعوزاكم .

وتقبلوا يا فخامة الرئيس فائق احترامي

الجنرال كاترو

جواب الشيخ تاج الدين الحسني

الى فخامة الجنرال كاترو المندوب الاعلى لفرنسة الحرّة

يا صاحب الفخامة

لقد تلقت كتاب فخامتكم ، بتاريخ ١٢ ايلول سنة ١٩٤١ ، بمزيد الغبطة والسرور ، فلا يسعني الّا ان ابدي عظيم شكري وامتناني ، على ما ابديتموه فخامتكم من العطف الاكيد على القضية السورية ، التي يسرّنا جميعاً ان تدخل في حيّز العمل في عهد فرنسة الحرّة ، وعلى رأسها ذلك القائد الكبير فخامة الجنرال دي غول.

لقد اثبتت فرنسة مرة اخرى صدق نياتها نحو بلادنا العزيزة ، وها هي

اليوم تحقق ما عاهدتنا عليه في منحنا الاستقلال والسيادة المطلقة اللذين ينشدهما الشعب السوري، منذ زمن طويل، فهذا العمل الطيب سيكون دعامة عامة قوية في توثيق عرى الصداقة التي تربط شعبينا منذ اقدم العصور.

وتلبية لنداء فخامتكم المخاص ابادر الى اعلان قبول المهمة الخطيرة التي يدعوني الواجب الوطني لان اتولاها، بالرغم مما يحيق بها من التبعات الخطيرة، مستنداً في ذلك الى مساعدة فخامتكم الثمينة، والى ثقة مواطنيّ الاعزاء. سائلاً المولى ان يسدّد خطانا الى ما فيه خير بلادنا العزيزة.

كما يسرني ان يقترن اسم فخامتكم المحبوب بهذا العهد الجديد، الذي هو عهد الاستقلال، فلا غرو فان تاريخ سورية سيحفظ لكم في طياته ما اسديتم من الخدمات الجلّى لقضيتنا الوطنية.

واختم كتابي هذا بالشكر الجزيل على العواطف النبيلة التي افصحتم عنها نحو شخصي. وارجو ان يمنّ الله على فرنسة الحرّة وعلى سورية وحلفائهما بالخير والفلاح.

وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول اسمى تحياتي واحتراماتي الفائقة.

دمشق، في ١٣ ايلول ١٩٤١

محمد تاج الدين الحسني

خطاب الجنرال كاترو

ألقى فخامة المندوب العام في اثناء الاحتفال الذي أقيم يوم السبت ٢٧ ايلول، في العاصمة السورية، لاعلان الاستقلال، البيان التالي:

ايها السوريون

في اليوم الثامن من شهر حزيران الماضي، عند دخول جيوش الحلفاء بلاد الشرق، اذعت عليكم باسم فرنسة الحرّة ورئيسها الجنرال دي غول بياناً اعترفت فيه لسورية بصفة الدولة المستقلة ذات السيادة تضمنها معاهدة تحدد فيها علائقنا المتبادلة. وفي الوقت نفسه اذاعت الحكومة البريطانية حليفة فرنسة الحرّة بالاتفاق معها بياناً اشتركت فيه بهذا العمل السياسي الخطير. وفي السادس عشر

من الشهر الحالي حققت مضمون بيان ٨ حزيران سنة ١٩٤١ وحوّلته من مصاف المبادئ المكتسبة الى حيّز المؤسسات والحقائق الراهنة. وهكذا فقد أتيح لسورية المستقلة ذات السيادة العهد الذي تتولى فيه مقدراتها. لقد قبل فخامة الشيخ تاج الدين افندي الحسني ان ينظم عهد الاستقلال الجديد. وقد عيّنته لهذه المهمة السامية ما تحلى به من خبرة في الاعمال ومعرفة صميمة للضرورات العامة. واني اوكد له وللامة السورية النبيلة مؤازرتي ومعاونتي المخلصة وسأقوم بهذه المعاونة مستوحياً المبادئ التالية:

تتمتع الدولة السورية بالحقوق والميزات التي تتمتع بها الدول المستقلة ذات السيادة. ولا تخضع هذه الحقوق والميزات الّا للقيود التي تفرضها حالة الحرب الحاضرة، وأمن البلاد، وسلامة الجيوش الحليفة، ومن جهة اخرى فان موقع سورية في الواقع كحليفة لفرنسة الحرّة وبريطانية العظمى يستدعي انطباق سياستها انطباقاً وثيقاً على سياسة الحلفاء. وحيث ان سورية قد دخلت في الحياة الدولية فانها تنتقل اليها طبعاً الحقوق والواجبات المعقودة باسمها.

ويحق لسورية ان تعيّن ممثلين سياسيين لها في البلدان متى ترى ان مصالحها تقضي بهذا التمثيل. اما في سائر البلدان الاخرى فان سلطات فرنسة الحرّة تقدّم المساعدة لتأمين الدفاع عن حقوق سورية ومصالحها العامة وحماية ارباب التبعة السورية فيها.

ويحق للدولة السورية ان تشكل قواها العسكرية الوطنية، وتقدّم لها فرنسة الحرّة مؤازرتها التامة لذلك.

لقد تعهدت بريطانية العظمى مراراً بان تعترف باستقلال سورية. وستتدخل فرنسة الحرّة بدون ابطاء لدى سائر الدول الحليفة او الصديقة لتعترف ايضاً باستقلال الدولة السورية.

ترى فرنسة الحرّة ان دولة سورية تشكل من الوجهة السياسية والجغرافية وحدة لا تتجزأ، وانه من الضروري ان تضمن سلامة كيانها من اي تجزئة كانت. ولذلك فهي ستساعد على توثيق الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية التي تجمع بين اجزاء الوطن السوري. وبلوغاً لهذه الغاية سيعدل مندوب فرنسة

الحرّة العام، المطلق الصلاحية، النصوص التي تتضمن الانظمة الخاصة الممنوحة سابقاً الى بعض المناطق بطريقة تؤمن خضوع هذه المناطق سياسياً الى السلطة المركزية مع استبقاء الاستقلال الاداري والمالي التي تظهر تمسكها الوثيق به. وهكذا يوفق بين مبدإ الوحدة السورية واماني تلك المناطق الخاصة. ومن المفهوم ايضاً ان ضمانات الحقوق العامة المسجلة في النصوص الاساسية لصالح الافراد والجماعات تبقى ويكون لها كامل مفعولها.

تتعهد فرنسة الحرّة بالتوسط لدى سورية ولبنان لايجاد ووضع اسس للتعاون الاقتصادي بين البلدين ولازالة الصعوبات التي يجابهها هذا الاتفاق الضروري بين بلدين اخوين وجارين يجب ان يضمن حقوق الطرفين المشروعة المتبادلة وان يثبت العلائق بينهما على اساس الثقة المتبادلة.

ومحافظة على استقلال سورية وسيادتها وقيامها بمهمة الكفاح المستمر قياماً موفقاً، يتحمل الحلفاء في فترة الحرب اعباء الدفاع عن البلاد. ومن اجل ذلك تضع الحكومة السورية تحت تصرف ادارة الحلفاء لاجل المساهمة في الذود عن اراضي البلاد القوى الوطنية السورية. كما ان قيادة الحلفاء تتصرف منذ الآن بتجهيزات سورية ومصالحها العمومية، لا سيما طرق المواصلات والمطارات وانشاءات الشواطئ، وذلك على قدر ما تقضي به الضرورات العسكرية.

وتنصّ مهمة الذود عن البلاد بان يقوم تعاون وثيق في اي وقت كان بين الجنرال القائد الاعلى المندوب العام ودوائر الدرك والشرطة والامن في الدولة السورية، اذ انه من الواجب الدفاع عن سورية في ايام الحرب، ليس من اعدائها في الخارج فحسب بل ومن اعدائها في الداخل.

وبالنظر لاندماج سورية في منطقة الحرب، وفي نظام الحلفاء الاقتصادي والمالي يقتضي ايضاً ان يقوم اوثق تعاون بين الحكومة السورية والحلفاء لكي تأمن في فترة الحرب، وفي سبيل المصلحة المشتركة، موجبات واحترام جميع التدابير المتخذة لتسيير الحرب الاقتصادية في طريق النجاح.

وبلوغاً لهذه الغاية، يمنح في فترة الحرب اكثر ما يمكن من التسهيلات لتأمين حرية التبادل بأوسع ما يمكن بين سورية والبلاد الداخلة في الكتلة الاسترلينية.

وسورية التي انضمت الى هذه الكتلة الاسترلينية تتخذ في الحقل الاقتصادي والمالي لا سيا في ما يتعلق بالقطع (الكمبيو) التدابير اللازمة لتبقى متمشية مع سياسة الكتلة الاسترلينية العامة .

ان الاحكام الواردة اعلاه توفق بين احترام استقلال سورية وسيادتها من جهة ومقتضيات حالة الحرب من جهة ثانية . وهي تستوحي فكرة واحدة هي فكرة ربح الحرب وتأمين مستقبل حر للشعب السوري عن هذه الطريق . وهي تحلّ المشكلة الفرنسية السورية حلًا منبثقًا عن عزم فرنسة الحرّة على عدم تأخير تحقيق الاماني القومية السورية وتنفيذ وعود الحلفاء بالرغم من الحرب . على انه من الضروري ان يقوم بتمام هذا الحلّ حلّ نهائي باسرع ما يمكن على شكل معاهدة فرنسية سورية تكرّس استقلال البلاد وتثبته تثبيتاً نهائياً .

لتحيَ سورية المستقلة

ولتحيَ فرنسة

دمشق ، في ٢٧ ايلول سنة ١٩٤١

التوقيع : الجنرال كاترو

وقد ردّ فخامة الشيخ تاج الدين على بيان المندوب العام بخطاب قال فيه ان فرنسة لم تنسَ ماضيها ، وسورية تعرف هذه الحقيقة وتبقى دائمًا وابدًا حليفة وصديقة مخلصة لفرنسة . ثم حيّى رئيس الجمهورية جهاد الجنرال دي غول ومعاونيه في سبيل نصرة الحق ، كما حيّى ايضًا فخامة الجنرال كاترو لاهتمامه بالسلم وبمنح سورية استقلالها رغم المهام الخطيرة التي يقوم بها . وختم الرئيس بارسال شكر الشعب السوري الى فرنسة .

اعلان استقلال لبنان

في صباح الاثنين ٢٤ ت ٢ عام ١٩٤١ تبادل صاحبا الفخامة الجنرال كاترو والرئيس الفرد نقّاش الرسالتين التالي نصهما الرسمي :

كتاب الجنرال

الى فخامة الرئيس الاستاذ الفرد نقّاش

يا فخامة الرئيس

ان اعلان استقلال لبنان ، الذي انوي باسم فرنسة الحرّة القيام بــه في امد

قريب جداً ، انما يستدعي ايجاد وضع جديد ، واصلاح انظمة واختيار كتلة من الاشخاص قادرة ، تحت دفعة من رئيس خليق ، على تسلم مقدرات البلاد.

ثم ان ارادة الشعب ، التي وقفت عليها شخصياً ، بواسطة اتصالاتي الاخيرة المباشرة ، انما عبرت بصورة مجمعة عن المبادئ التي ترتئي ان تجعل منها اسس المستقبل المباشر للبلد اللبناني ، بحيث ينبغي ان يستوحي النظام الواجب ايجاده تطبيق مبادئ الاستقلال النظرية واماني الاهلين معاً.

يطلب هؤلاء حكومة قومية . وبالوقت نفسه يؤكدون بعزم وطيد ارادتهم بأن لا يحرموا من صداقة فرنسة الفعالة.

وهم قد اتخذوا الماضي لهم أمثولة ، انما يرفضون السياسة العقيمة ، الكثيرة الاكلاف ، ويشجبون تنازع الاشخاص والاحزاب . وينشدون الوئام بين ابناء الوطن وطوائفه.

وهم يصرّون على ان تتوفر ضمن نطاق المجموعة اللبنانية ، مساواة في الواجبات والحقوق بين الاشخاص ، وتوزيع منصف للتكاليف والمنافع بين الطوائف ، واخيراً احترام لمصالح المناطق.

يطلبون العدل المجرّد ، والتقيد الدقيق بالقانون وزوال عهد الحزبية والتخاصم على المناصب.

ينشدون ادارة نظيفة رشيدة ، وحكومة نزيهة قوية ، تحرص على طمأنينتهم ، وتهتم بسدّ حاجاتهم ، وتكون قادرة على جعلهم يذللون المصاعب التي توجدها حالة الحرب ، وعلى ادارة المصالح العامة باقتصاد ، وتكون قوية في تحكيم سلطانها في جميع الامور.

وبكلمة واحدة تطلب الامة اللبنانية نظاماً حياً منعشاً.

ينبغي ان يخضع الحكم الواجب ايجاده لهذه الاماني المشروعة التي تتنكب عن اللجوء الى الاساليب النيابية ، وتستدعي اقامة حكومة ذات سلاح قوي في اتخاذ المقررات وفي العمل ، تجمع في ايديها بين السلطات التنفيذية والسلطات التشريعية.

وان حكومة كهذه ، ممثلة في تأليفها لوجه ومصالح العناصر المختلفة في

الامة ، جامعة رجالاً يتمتعون بالاحترام والثقة عند الشعب ، انما تكون حكومة تبعث الطمأنينة في البلاد وهي على عتبة الاستقلال.

وتأليف مثل هذه الحكومة ونفخ روحها فيها ، ورسم مهمتها لها ، ودفعها الى العمل الذي ستكون مسؤولة عنه لديكم ، تلك هي الرسالة الوطنية السامية التي اقترح عليكم امر الاضطلاع بها متخذين لقب وميزات وواجبات رئيس الجمهورية اللبنانية ، وآمل ان تقبلوا بها.

وانا في توجيهي اليكم بهذا النداء انما استوحي مصالح لبنان ، التي تهمني كما تهمني مصالح بلادي نفسها المرتبطة ببلادكم بصداقة لا تنفصم . واستوحي ايضاً الامانة التي برهنتم عنها لقضية الحلفاء . كما استنير بالصوت العام ، الذي يعترف به مجمعاً ، بخلقكم العالي المجرَّد ، وبجرأتكم الوطنية ، وبالمقدرة التي برهنتم عنها في اضطلاعكم بشؤون بلادكم في احدى مراحلها الحرجة.

وتفضلوا يا فخامة الرئيس بقبول فائق احترامي . وفي حال قبولكم العبء السامي الذي اقترح عليكم تحمله ، ثقوا بمؤازرتي الودية المخلصة في كل وقت.

بيروت ، في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٤١

الامضاء : ج. كاترو

جواب الرئيس

الى فخامة الجنرال كاترو المندوب العام المطلق الصلاحية لفرنسة الحرة في الشرق

يا صاحب الفخامة

لي الشرف ان اشكر لكم الدليل السامي على الثقة التي ابديتموها لي باقتراحكم عليَّ الاضطلاع بعبء ثقيل في الظروف الحاضرة ، هو رئاسة الجمهورية اللبنانية.

لقد شئتم يا صاحب الفخامة ، قبل اتخاذ هذا القرار ووضع برنامج الاصلاحات ، الذي تلطفتم بابلاغي اياه ، ان تدرسوا المشكلة اللبنانية عن كثب ، وجاء التحقيق الدقيق الذي قمتم به شخصياً في مجمل انحاء البلاد لاجل الوقوف على حاجاتها برهاناً صارخاً على الصداقة التي تكنونها لها وعلى اهتمامكم السامي بمقدراتها ، الامر الذي يؤثر فينا عميق التأثير.

والبرنامج الذي رُسم على هذا الشكل هو ثمرة هذه التحريات الدقيقة المجردة، وتلك الاستشارات المباشرة التي يجدر ان يُطلق عليها اكبر اهمية وتؤخذ حتماً بعين الاعتبار في ادارة الحكم في لبنان.

وانا، وقد وقفت على اماني ابناء وطني، وتسلحت بالموازرة الودية المخلصة التي كنت اجدها لديكم دائماً في خلال الاشهر الاخيرة لاتمام واجب صعب بصورة خاصة وقفت الحكومة عليها جهودها، لي الشرف ان اقبل بالمهمة التي تقترحون، وسأسعى في تحقيق هذه الاماني متوكلاً على مساعدته تعالى.

وفيما اكرر امتناني ارجو، يا صاحب الفخامة، ان تقبلوا اكيد احترامي الفائق.

بيروت، في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١

الامضاء: الفرد نقاش

المناداة باستقلال لبنان

وفي اليوم التالي، الثلاثاء ٢٥ ت ٢، أصدرت الحكومة تعميماً بتعطيل الاعمال يوم الاربعاء ٢٦ ت ٢ للاحتفال باعلان الاستقلال، على ان يكون ذلك اليوم بعد الآن عيداً وطنياً في لبنان.

وحوالى الساعة العاشرة والدقيقة ال٥٠ من يوم الاربعاء المذكور وصل فخامة الرئيس النقاش الى السراي المنيرة التي كانت قد أُعدّت قاعاتها لاستقبال كبار المدعوين، فقوبل فخامة الرئيس بالتصفيق الحاد وصدحت الموسيقى بالنشيد اللبناني وعند الساعة ١١ تماماً وصل فخامة الجنرال كاترو فصدحت الموسيقى بنشيد المارسيلياز وهتفت الجماهير وصفقت طويلاً.

ولما وصل فخامته الى قاعة الاستقبال في السراي استقبله على الباب فخامة الاستاذ الفرد نقاش والاستاذ احمد الداعوق يحيط بها الرؤساء الروحيون في مختلف الطوائف والوجهاء ورؤساء الوزراء والوزراء السابقون والقناصل والهيئات المنظمة، وحوالى الساعة ١١ والدقيقة الخامسة ألقى الجنرال كاترو امام الميكروفون خطاباً ثم أذاع بياناً قوبلا بالتصفيق.

خطاب فخامة الجنرال كاترو

يا فخامة الرئيس

اصحاب الدولة والسعادة

ايها السادة

في سجل امجاد التاريخ اللبناني، سيسجل الآن عمل كبير يحمل من دولتكم

دولة حرة التصرف في مقدراتها ، عمل يتراءى فيه بشكل رائع العداء الاساسي القائم بين الروحين اللذين فرق احتدام الجيوش ، يتنافسان من اجل نيل الظفر ومقدرات الانسانية .

وفيما نرى قوات العدو تسلب الامم او تدمرها او تسترقها ، نجد جيوش الحلفاء تحترمها وتبعثها وتحررها .

وفيما تقام في احدى مدن العروثانس ، بامرة المستشار هتلر ، صورة مفوضية عليا لفرنسة تدعي انها تواصل ادارة سورية ولبنان ، يعلن مندوب فرنسة الحرة بتصرف تلقائي تؤيده بريطانية العظمى ، استقلال هذه البلاد .

وفي الحقيقة من عساه لا يتأثر في لبنان لهذا التناقض ؟ من تراه لم يحتر بين مثل العدالة والحرية عندنا ، وتهمة السيطرة والفتح التي تسير اعداءنا ، واي وطني لبناني لا يعتنق قضية ابطال حقوق الشعوب والناس ؟

او ليس مجرد طرح هذه الاسئلة اجابة عليها ؟ لان غريزة الشعب اللبناني هي الخضوع لشرائع العقل الوضعية والانصياع معاً لتدفق العاطفة . والعقل والعاطفة يتضافران اليوم في سبيل قيادته شطر اولئك الذين يريدون وحدهم حريته ويحاربون في سبيل انبل المثل العليا ، شطر الذين من وراء اعلام بريطانية العظمى وفرنسة الحرة ، تلك الاعلام المتعانقة ، سينقذونه هو والعالم من الاستعباد والجور .

ولو انه خامرني في ذلك اي شك لكفاني مؤونة ازالته من خاطري ان اثير حماسة تجلت في جميع الحفاوات التي خصها بي السكان في جميع انحاء لبنان ، عندما كانوا يحيون بي انا احد اولئك الجنود ، ويحيون بشخصي دولة فرنسة ، فرنسة الحقيقية التي يحبونها ويكرمونها تلك التي لا تعدل عن شيء ، تلك الامينة لمجدها وعزتها ، والتي باسمها سأعلن تحريركم واستقلالكم .

بيان الجنرال كاترو

ايها اللبنانيون

لقد اذعت عليكم في ٨ حزيران الماضي باسم الجنرال دي غول ، رئيس فرنسة

الحرّة ، بياناً اعترفت فيه للبنان بصفة الدولة المستقلة ذات السيادة بضمان معاهدة تُعقد فيما بعد وتُحدّد فيها العلائق المتبادلة بين لبنان وفرنسة . وقد ايدت هذا البيان حليفتنا بريطانية العظمى بتصريح خاص صدر في الوقت نفسه .

لقد ارادت فرنسة الحرّة ، وهي الامينة على تقاليدها الحريصة على البرّ بالعهود المقطوعة لكم ، ان تكون باكورة اعمالها عند دخولها الى بلاد الشرق عملاً تحريريًا ، وذلك بالرغم من الحرب ومن الحالة الشاذة التي تفرضها . لقد جعلتكم فرنسة الحرّة احرارًا مستقلين ، وصارت امانيكم في حيّز التحقيق .

والآن ينبغي تنظيم استقلالكم . اما انا فعليّ واجبان تقضي بهما موجبات الرعاية .

الواجب الاول هو ان اسلّم امر تنظيم العهد الجديد وادارته الى شخصية تتوفر فيها في الظروف الحاضرة الصفات العليا للقيام باعباء هذه المهمة الوطنية الدقيقة . وبعد استشارات واسعة جدًا للرجال وللرأي العام تمت بها في مختلف انحاء البلاد رأيت ان امنية الامة تتجه الى فخامة الاستاذ الفرد نقّاش فطلبت اليه ان يبقى في الحكم متخذًا لقب وميزات رئيس الجمهورية وان يحكم بواسطة مجلس وزراء مسؤول امامه ، تتمثل فيه تمثيلاً عادلاً جميع المناطق والمذاهب التي تتألف منها الامة اللبنانية .

وها اني اؤكد لفخامة الرئيس النقّاش الذي قبل المهمة ، وللامة اللبنانية عامة ، عنايتي ومؤازرتي التامة .

اما الواجب الثاني فهو تحديد روح وشكل التعاون الذي ينبغي ايجاده بين لبنان وفرنسة الحرّة ريثما تُعقد بينهما معاهدة تحالف وصداقة .

ان فرنسة ، اذ تعترف باستقلالكم ، لا تستوحي إلّا صداقتها التاريخية للبنان ومهمة الرعاية التي تقوم بها نحوه على ممرّ الاجيال والحالة الممتازة التي اكتسبتها هكذا فيه . وتبقى مساعدتها ومؤازرتها متوافرتين في كل شيء للبنان حسب روح معاهدة التحالف والصداقة التي عُقدت بين البلدين سنة ١٩٣٦ والتي اجمع اللبنانيون على الموافقة عليها .

ومن جهة اخرى فظروف الحرب واحتلال قوى الحلفاء للاراضي اللبنانية

تضع لبنان موقتاً في حالة خاصة ، الامر الذي ينشأ عن بعض الحقوق والواجبات اذكر منها بنوع خاص ما يلي :

تتمتع الدولة اللبنانية منذ الآن بالحقوق والميزات التي تتمتع بها الدول المستقلة ذات السيادة ، وهذه الحقوق والميزات تخضع للقيود التي تفرضها حالة الحرب الحاضرة وامن البلاد وسلامة جيوش الحلفاء .

ومن جهة اخرى فكونها في الواقع حليفة لفرنسة الحرّة ولبريطانية العظمى يستدعي انطباق سياستها انطباقاً وثيقاً على سياسة الحلفاء .

ولبنان ، اذ يدخل في الحياة الدولية المستقلة ، تنتقل اليه الحقوق والواجبات الناشئة عن جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التي عقدتها فرنسة بشأنه او باسمه . ويحق له ان يعيّن ممثلين سياسيين في البلدان التي يرى ان مصالحه تقضي بهذا التمثيل . اما في سائر البلدان الاخرى فان سلطات فرنسة الحرّة تقدم المؤازرة لتأمين الدفاع عن حقوق لبنان ومصالحه ولحماية ارباب التبعة اللبنانية .

ويحق للدولة اللبنانية ان تشكل قواها العسكرية الوطنية وتقدم لها فرنسة الحرّة كل المساعدة لذلك .

وحيث ان بريطانية العظمى قد تعهدت مراراً بان تعترف باستقلال لبنان ، فان فرنسة الحرّة تتدخل بدون ابطاء لدى سائر الدول المتحالفة او الصديقة الاخرى لتعترف هي ايضاً باستقلال دولة لبنان .

ترى فرنسة الحرّة ان دولة لبنان تؤلف سياسياً وجغرافياً وحدة لا تتجزأ وان من الواجب ان لا تمسّ سلامتها . ولذلك فهي ستساعد على توثيق الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية التي تجمع بين اجزاء الوطن اللبناني . ومن جهة اخرى ، وبلوغاً لهذه الغاية ، تضمن الحكومة اللبنانية المساواة في الحقوق المدنية والدينية والسياسية بين سائر تبعتها بدون اي تمييز ، وتؤمن توزيعاً عادلاً بين مختلف عناصر البلاد للمراكز العليا ولمجموع وظائف الدولة . كما انها تؤمّن في توزيع النفقات ذات المنفعة العمومية نسبة عادلة بين مختلف المناطق وستقوم باسرع ما يمكن بتوحيد النظام المالي وبالاصلاحات الادارية اللازمة .

وتتعهد فرنسة بالتوسط لدى لبنان وسورية لايجاد ووضع اسس للتعاون

الاقتصادي بين البلدين ولازالة الصعوبات التي يجابهها هذا التعاون في الوقت الحاضر.

وهذا الانفاق الضروري بين بلدين اخوين وجارين يجب ان يضمن حقوق الطرفين المشروعة المتبادلة وان يثبت العلائق بينهما على اساس من الثقة المتبادلة.

ومحافظة على استقلال لبنان وسيادته وللقيام بالحرب المشتركة قياماً حسناً، يتحمل الحلفاء في فترة الحرب اعباء الدفاع عن البلاد. وتوصلاً لهذه الغاية تضع الحكومة اللبنانية تحت تصرف قيادة الحلفاء للمساهمة في الذود عن البلاد القوى الوطنية اللبنانية، كما ان قيادة الحلفاء تتصرف منذ الآن على قدر ما تفرضه الضرورات العسكرية بتجهيزات لبنان ومصالحه العامة لا سيما طرق المواصلات والمطارات ومنشآت الشواطئ. وتقضي ايضاً مهمة الذود عن البلاد بايجاد تعاون وثيق في اي وقت كان بين الجنرال القائد الاعلى والمندوب العام ودوائر الدرك والشرطة والامن في الدولة اللبنانية، اذ انه من الواجب الذود عن لبنان في ايام الحرب ليس من اعدائه في الخارج فحسب بل ومن اعدائه في الداخل ايضاً.

وبالنظر لاندماج لبنان في منطقة الحرب وفي نظام الحلفاء الاقتصادي والمالي يقتضي ايضاً ان يقوم اوثق تعاون ممكن بين الحكومة اللبنانية والحلفاء لتؤمن في اثناء الحرب، وفي سبيل المصلحة المشتركة، موجبات واحترام جميع التدابير المتخذة لتسيير الحرب الاقتصادية في طريق النجاح.

وبلوغاً لهذه الغاية يُعطى في مدة الحرب اكثر ما يمكن من التسهيلات لتأمين حرية التبادل على اكبر قدر ممكن بين لبنان والبلدان الداخلة في الكتلة الاسترلينية. ولبنان الذي دخل الآن في هذه الكتلة سيتخذ في الحقل الاقتصادي والمالي، وعلى الاخص فيما يتعلق بالقطع (الكمبيو)، التدابير اللازمة ليبقى منسجماً مع سياسة الكتلة الاسترلينية العامة.

ان الاحكام الواردة اعلاه توفق بين احترام استقلال لبنان وسيادته ومهمة فرنسة التاريخية ومقتضيات حالة الحرب. وهي مستوحاة من فكرة ربح الحرب وتأمين مستقبل حرّ للشعب اللبناني عن هذه الطريق. وهي تحلّ المشاكل الفرنسية اللبنانية حلاً منبثقاً عن عزم فرنسة على عدم تأخير تحقيق اماني لبنان القومية وتنفيذ وعود فرنسة، وذلك بالرغم من الحرب. على انه من الضروري ان يقوم

مقام هذا الحلّ باسرع ما يمكن حلّ نهائي على شكل المعاهدة الفرنسية - اللبنانية التي تكرّس استقلال لبنان وتثبته نهائياً.

وليحيَ لبنان الكبير !

ولتحيَ بريطانية العظمى !

ولتحيَ فرنسة الحرّة !

خطاب الرئيس النقاش

فاجاب الرئيس بخطاب قوطع بالتصفيق

يا صاحب الفخامة

في الوقت الذي تعلنون فيه استقلال لبنان وتعهدون اليّ بشرف وعبء تنظيم الدولة الجديدة ، ارى ان واجبي الاول هو ان اعرب لكم عن امتنان البلاد باسرها لشخصكم ، وعن الآمال التي تعلّقها على فرنسة وحلفائها.

لقد شئتم يا صاحب الفخامة وانتم تعبرون عن فكر فرنسة الحرّ السخي وعن عدالتها — وشاءت في الوقت نفسه حليفتكم النبيلة بريطانية العظمى — ان تكون باكورة اعمالكم عملاً تحريرياً وان يكون لهذا التحرير ، طابع راهن فوري بالرغم من النظام الشاذ الذي تفرضه الحرب والذي نفهم ضروراته.

وريثما تمكن الظروف من عقد معاهدة تتحد فيها نهائياً العلائق بين فرنسة ولبنان ، ومن انتقال مجموع صلاحيات السيادة وميزاتها ، اردتم منذ اليوم ان تعطوا اللبنانيين الدلائل الاولى الملموسة لهذه السيادة ، اعني التمثيل الخارجي وانشاء قوة عسكرية وطنية.

وهذا العمل الذي سيكتمل بالمعاهدة المقبلة مع ما يتفرّع عنه من النتائج سيتضمن تحقيق عهود فرنسة ومهمتها في بلاد الشرق. وذلك نتيجة تقاليد عظيمة لا يحدّها مكان او زمان ، وفيه تثبيت للروابط التي ربطت بلدينا على ممرّ الاجيال . وتلك التقاليد المبنية على تبادل الاحترام والثقة والتي تنسجم تمام الانسجام مع احترام حقوق لبنان واستقلاله ، قد صرّح بها عالياً هنا الجنرال دي غول الذي نرجو ان تعربوا له عن صداقتنا وامتناننا.

يا صاحب الفخامة

اذا كنت اقبل اليوم المهمة السامية التي اتسلم مسؤوليتها من ثقتكم وثقة البلاد ، فلاني متأكد من ان الشرطين اللذين لا بدّ منهما لسلامة هذا الاستقلال سيتحققان حالاً .

لقد شئتم ان تؤكدوا لنا من جديد موازرة فرنسة اذ ضمنتم للبنان بقاء وحدته السياسية وسلامة اراضيه . وهكذا فان فرنسة وضعت اسس بقاء الوطن اللبناني واثبتت شرطه الاول .

اما الشرط الثاني للاستقلال فهو يتعلق بنا . وبهذه المناسبة اناشد حكمة بني قومي ووطنيتهم . فالاستقلال ، الذي لا كرامة بدونه ، يجب ان يكون مشيدًا على اتحاد اللبنانيين . وعليه فالهدف الذي سأسعى دائمًا اليه هو ادخال جميع العائلات الروحية التي يتألف منها الوطن اللبناني في المجموعة اللبنانية واني على ثقة بان الجميع قد فهموا ذلك وانهم جميعاً يشعرون اكثر فأكثر بضرورة الكف عن المنازعات الحزبية والخصومات المؤلمة العقيمة التي اخرت دخول البلاد في نظام الدول المستقلة استقلالاً حقيقياً .

ولذلك فسيكون اكبر همي بذل كل ما يمكن من الوسائل لانماء التطور الفكري العام على هذا النمط وتقوية فكرة الدولة .

والوسيلة الاولى لذلك هي التي ارتأيتموها فخامتكم في بيانكم الرسمي : اعني تأمين تمثيل المناطق والطوائف على قدر الامكان تمثيلاً يتوافر فيه اكثر ما يمكن من العدل واشراكها بالمسؤولية العامة وجعل مساهمتها في ادارة الدولة فعلية اكثر فاكثر ، وهكذا ، فاذا كان نظام الحرب لا يسمح لسير المؤسسات الطبيعي ان ينشئ تمثيلاً وطنياً ، فمن الممكن ان يُستعاض عنه بحكومة تجمع بين صفة التمثيل وسلطات التنفيذ ، على ان يتأمن فيها التوازن الاساسي بين الطوائف والمناطق طبقاً للامنية التي اعربتم عنها ومع اخذ حاجات الادارة الصحيحة بعين الاعتبار .

ومن جهة اخرى فالحرية الشخصية وحرية الضمير تكونان مضمونتين ومحميتين ونحن نؤكد ذلك علنًا ومجددًا .

وعلى هذا الاساس وبفضل مؤازرة فرنسة ومساعدة الدول الحليفة والصديقة وعلى الاخص مساعدة بريطانية العظمى وتفهمها الحرّ لضروراتنا السياسية، لي الامل الوثيق بان الدولة اللبنانية ستدخل في الاستقلال التام الحقيقي.

على ان مصيرها في الساعات العصيبة التي تجتازها البشرية، يبقى مرتبطاً بمصير تحرير فرنسة والنصر النهائي، وسيأتي يوم تزول فيه عن العالم شدائد الحرب فيتمكن لبنان بمساعدة حليفته الكبرى السخية من تحقيق مقدراته واتمام مهمته في شرق البحر المتوسط.

ولتحيَ فرنسة !

ولتحيَ بريطانية العظمى !

وليحيَ لبنان !

مطبوعات جديدة

CARBONE CESARE, Circulus philosophicus seu objectionum cumulata collectio iuxta methodum scholasticam. Vol. IV, Psychologia, vol. V, Theodocea. 2 v. in-8°, VIII+892 et VIII+663 pp. Turin, Marietti, 1938.

كتاب تعليمي في الفلسفة المدرسية

ينتهي بهذين المجلدين الرابع والخامس، المختصّين لعلم النفس والالهيات، وبالمجلد السادس الذي قد يكون ظهر مختصاً بالاخلاقيات، الكتاب التعليمي في الفلسفه المدرسية الذي طالما قدرته المعاهد الاكليريكية وعرفت مزاياه في تهذيب طلاب الكهنوت.

M. F. STEENBERHE, ENGERINGH, Mgr LE Dr HOOGVELD, Dr L. DUPRAZ, H. NAEGLEN, M. BAERS, R. P. PLUS, Y. DE ROBIEN, R. P. PILLOUD, La Femme Catholique dans le monde contemporain. vol. in-12. Plon, 1939.

المرأة الكاثوليكية في العالم العصري

غاية هـذا الكتاب ان يولي المرأة المسيحية التعليم الاساسي في ما خص طبيعتها ومهمتها في المجتمع العصري، فيسهل عليها القيام بهذه المهمة وفقاً للدور الخاصّ الذي سنّه لها الله، مع العمل على تحقيق سعادتها الزمنية والابدية.

وسواء أكان دور المرأة المذكورة في الحياة الزوجية ام في العمل الكادح، سواء أكان في الامومة، ام في التربية، ومهما كان مركزها في الحياة الاجتماعية وفي حياة الامة، فان هـذه الابحاث تسنّ لها الطرق الواضحة وتعطيها الحلول الصريحة لمشاكل الحياة، مستندة الى عقيدة الانجيل وتعاليم البراءات البابوية. فهي والحالة هذه، خير دليل للمرأة المسيحية المهتمة بالقيام بدورها خير قيام.

Sancti Aurelii Augustini confessionum libri XIII cum notis P. H. WANGNEREK, S.J. Edition Octova. In-16, Marietti, 1938.

اعترافات القديس اغوسطينوس

هي طبعة جميلة المظهر، رقيقة الورق، سهلة المحمل، لاثر القديس اغوسطينوس

الخالد . اما تعاليق الطابع فقليلة مختصرة موافقة رمى ما فيها خاصة الى اظهار ما يفيد الحياة الروحية ، والوعاظة .

PAUL HENRY, **La vision d'Ostie, sa place dans la vie et l'œuvre de Saint Augustin.** In-12, de 130 pp. Paris, Vrin, 1938.

رؤيا اوستية : دورها في حياة القديس اغوسطينوس وأثره

كتاب صغير الحجم ، كبير القيمة ، نذكره متأخرين ، وقد استقبلته بالترحاب فور ظهوره ، اوساط الفكر الديني والفلسفي .

كلّ من قرأ « الاعترافات » يذكر ذاك المشهد العجيب في اوستية الذي خلّده الفنّ التصويري ، بعد ان نشره القديس نفسه في مذكراته ؛ مشهد الام مونيكا في جذلها الدافق اذ ترى حلم حياتها يتحقق قبيل تركها هذه الفانية ، ومشهد الابن اغوسطينوس في فرح اهتدائه الى الايمان ودخوله بالمعمودية ، الى الكنيسة الكاثوليكية ، فاستعداده لتلك الحياة الطافحة بجلائل الآثار الفكرية والعملية ، كلاهما تجمعهما حالة وجدية وافرة النعم دقيقة الشعور ، عبّر عنها القديس بارفع واثمن ما يمكن من التعبير الايماني .

هذا المشهد الحاسم في حياة القديس اغوسطينوس ، هو ما حاول تفهمه الاب پول هنري ، مؤلف الكتاب ، فدُفع في تحليله الدقيق حالة القديس ، الى ان يذكر ، بجنب النعمة الالهية التي كيّفت ورفعت جميع افكاره ، تلك الثقافة البشرية المتينة التي غُذي بها منذ صباه . وكان من الطبيعي ان يأتي المؤلف على ذكر افلوطين ، وقد عرفناه مؤرّخاً دقيقاً ومترجماً يقظاً للفيلسوف المذكور . فلا عجب ان يحمل تأملات اوستية تسير على طريقة افلوطينية . وليس من الغريب ان يكون سمبليسيانوس ، صديق اغوسطينوس ، قد تكلم بكثير من الاعجاب عن فيلسوف الافلاطونية المستحدثة ، قبيل الحادث . وكما قُدّر للقديس توما الاكويني ان يكون ارسطاطاليسي الاسلوب في فلسفته المسيحية الشاملة ، كان للقديس اغوسطينوس ان يستفيد ، في تفكيره الايماني ، من اساليب الفلسفة القديمة التي تناول ارثها الثمين بطريق الافلوطينية .

هذا ، وعلى كثرة الكتب المؤلفة في حياة المعلم الشرقي الكبير ، وأثره

الفلسفي اللاهوتي ، نرى لهذا الكتاب الصغير ما يجعل له المركز العالي بينها جميعاً

ب. م.

F. Palhoriès, L'Epanouissement de la Vie. 364 pp. Fernand Lanore, Paris.

ازدهار الحياة

مجموعة شائقة تجاور امامنا مظاهر ازدهار الحياة من الذرّة الى الفكر، مارةً بعجائب المخلوقات جميعها في عالمَي النبات والحيوان . ولم يكن أجدر من المؤلف ، مدير نشرة « كبار الفلاسفة » ، بان يلخّص في نحو ثلاثمائة صفحة ، احدث مكتشفات العلم في هذا الموضوع ، ويوقفنا على اتجاهها الرائع نحو قمم الانسانية والالوهية . والحقّ يُقال ان المؤلف شعر بالنغم الجذّاب في تسارق مظاهر الحياة في العالم ، راقياً الى انشودة الروح ، وعرف ان يشعرنا بهذا النغم .

Maurice Zundel, Allusions. 100 pp. Edition du Lien, Le Caire, 1941.

تلميح

عنوان موافق لهذا الكتيّب الذي خصّه المؤلف « بأزمة الحقيقة » التي نحياها في يومنا الحاضر . وقد أبان باسلوبه اللطيف الحازم ان اسباب الانهيار العالمي الذي نشهده يجب ان تُلتمس في تخلّي البشر عن الحقيقة المطلقة السامية . كلّ ذلك بانشاء رصين شعري جذّاب يقودنا تدريجياً ، شأنه في مؤلفاته السابقة ، الى المعلّم الداخلي ذي الاشعاع المنير المحيي .

عظات

للخوري اسقف يوسف رحمه

٨٥ ص . متوسطة — مطبعة دار الخطيب ، بيروت ، ١٩٤٠

هي مجموعة اربع محاضرات دينية القاها المؤلف من راديو الشرق ، بيروت ، في آحاد كانون الاول ١٩٣٩ ، فتناول فيها اثبات الوهية المسيح ، وشفاء المُقعد ، والكلمة ، ويسوع الطفل في مهده ، وضمّنها الآراء السامية ، والارشادات البليغة ، والشروح النيّرة ، كل ذلك باسلوب لطيف ، ولغة سلسة .

نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها

تأليف الاب انستاس ماري الكرملي
من اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي
القاهرة ١٩٣٨

لا شيء يدل على غاية المؤلف من وضع هذا الكتاب احسن مما صدّر به مؤلّفه اذ يقول: هذا بحث لغوي، جريتُ فيه على الاسلوب الحديث، تمحيصاً للحقيقة، ودفاعاً عن اللغة المضرية، وايضاحاً لما فيها من دقائق الاوضاع، وخفايا الاسرار، وغوامض الحروف، وخصائصها، وبدائع الصيغ واوزانها، وما فيها من مختلفات لُغى القبائل، متوقعاً البلوغ به الى الحق، غير مبتغٍ اجرًا ولا شكورًا؛ انما كل امنيتي خدمة العربية، وحمل ابنائها على السير في مثل هذا النهج، ليعلم غيرهم ان لسان العرب فوق كل لسان؛ ولا تدانيها لسان اخرى من السنة العالم جمالًا، ولا تركيباً، ولا اصولًا، ولا... ولا... ولا...

من هذا يتضح ان الكتاب اشادة بمحاسن اللغة العربية وفضلها. ولقد يمكن حضرة المؤلف علمهُ الكثير ووعيه الوافر من ان يغوص على درر الكلام وان يجول جولات واسعة في ميادين المعجمات فيستخرج منها الكثير مما لم يخطر على بال احد وجوده في طيّ امهات اللغة. لكنه يقصد ويتوخى ان تكون إشادته علمية مطابقة لعلم الالسني الحديث. فتراه يركّز بحثه في نقطتين يعيرهما الالسنيون اهمية خاصة، ألا وهما: كيف نشأت اللغة العربية، ثم ما هي علاقاتها بسائر اللغات السامية:

اما النقطة الاولى فان حضرة المؤلف يرى ان الاصل في اللغة العربية كان وضع مقاطع او هجاءات منفردة بسيطة يكتفي النطق بها للدلالة على معناها، لارتباط طبيعي بين رنة الصوت وبين المدلول عليه ثم يزيد حرف او حرفان على المقطع الاساسي وفقاً لتكاثر المعاني وتطورها. والبرهان على ذلك يطول سرده هنا. لكننا نكتفي بذكر مثل واحد: خذ مثلًا الافعال: ثَرَم، جَرَم، حَرَم،

خرَم ، شرَم ، صرَم ، عرَم ، غرمَ ، ترى فيها حرف الرا. يدل على الرَمّ . فهو المعنى الاساسي ، واذا الوضع الاول لهذه الكلمات ، زيدت عليه حروف مختلفة الافادة تختلف المعاني الطارئة على المعنى الاساسي .

اما النقطة الثانية فالمؤلف يجزم ان بين العربية وبين اللغات اليافثية علاقة نسب . لكن هذا النسب محصور في حيّز معلوم . فانه بعد التنقيب والمقابلة وجد ان كل كلمة يونانية او لاتينية ذات مقطع او مقطعين لا شك ان لها مقابلًا في لغة مُضَر ؟ ويؤكد انه ما توصّل الى هذه النتيجة الا بعد ان قلَّب معاجم هاتين اللغتين وعارض مفرداتها بمفردات العربية فتمكن من جمع قاموسين احدهما يوناني عربي والثاني لاتيني عربي يؤيدان هذه القضية . ولقد سرد في كتابه هذا بعض الامثال اثباتاً لهذه الفكرة الجريئة . منها ما يظهر معقولًا . مقبولًا ك : « الزرع = Serere وثم = Tum » ومنها ما يظهر بعيداً عن كل احتمال ك : « مع = Cum وشرف = Super » . على كل حال فان الامثال قليلة وتتطلب قلباً وابدالًا وتحويرًا لتفيد الغاية المنشودة حتى ان اقل ما يقال فيها انها ستبدو للمتخصصين بدروس الالسنية مبنية على كثير من الخيال . فلا نرى ناصرًا لدعم قضية حضرة المؤلف افيد من نشر معجميه المذكورين ليبدد ظلام الشك من عقول قارئيه . نضيف انه حتى في حالة التثبت من النسب بين اللغات اليافثية والعربية ينبغي له ان يبين ان هذا النسب اصيل عريق وانّ هذه الكلمات ليست محض استعارات من اللغة المضرية للغات اليافثية على عهد النفوذ اليوناني الروماني . ويخشى ان يكون في الامر بعض العناء .

فهارس المشرق

للسنة التاسعة والثلاثين

١٩٤١

فهرس اوّل

لموادّ السنة التاسعة والثلاثين من مجلة المشرق

فهرس ثانٍ

يحتوي اسماء كتبة المشرق ومقالاتهم

فهرس ثالث

للمطبوعات التي ورد وصفها في السنة التاسعة والثلاثين للمشرق

على ترتيب اسماء مؤلفيها

١ — المطبوعات العربية والسريانية الخ.

٢ — المطبوعات الاوروبية

فهرس رابع

لجميع موادّ السنة التاسعة والثلاثين من المشرق